صورة صلاح الدين الأيوبى في أدب الفرنجة
وصورة الفرنجة في أدب عصر صلاح الدين

دكتور
أحمد درويش

صورة صلاح الدين الأيوبى في أدب الفرنجة
وصورة الفرنجة في أدب عصر صلاح الدين

بقلم الدكتور أحمد درويش

تعد الحروب – على بشاعتها – واحدة من الظواهر الاجتماعية التى تتبادل خلالها الشعوب المتقاتلة أو المتحالفة، كثيرا من مظاهر التأثير والتأثر الاجتماعي والسياسي والأدبى، وهى مظاهر تتعدد أشكالها، فقد يكون التأثر بالموافقة أو بالمخالفة أو بالتمثّل والتشرّب أو الرفض والهروب، وقد يكون تأثرا ينطلق من المبدأ الشهير، القائل بأن المغلوب دائما مولع بتقليد الغالب، ولكن هذا المبدأ على شهرته وتحقق نماذجه في كثير من الأحايين، لم يستطع التفرد بالميدان، والتغلب على حالات ظهرت وبدت مضادة له تماما، كما حدث في الصراع الحضارى القديم فى جنوب أوربا، والذى تبادلت الغلبة والسياسة فيه قوتان هما: اليونان التى اشتهرت بتفوقها الفكرى والفلسفى وتنظيماتها الديمقراطية، وإبداعاتها الفنية، مما جعلها تبدو واحدة من أقدم القوى الممثلة للإبداعات الهائلة للمواهب الفكرية والفنية الإنسانية، وفى المقابل كانت قوة الرومان المنافسة مشهورة بتفوقها في مجال الإبداع الحربى، فصناعة الأسلحة القوية، والعجلات الحربية المتطورة. وقوى الرجال المدربة

قادرة على دك الحصون، واجتياز العقبات، وفتح المدائن، واحتلال البلاد، واقتحام الثغور، ومن هنا ظل المد والجزر سجالاً في حروب طويلة بين اليونان والرومان، حتى انتهت الحروب بموقعة فاصلة عام ١٤٦ قبل الميلاد، كتب فيها النصر لقوة الرومان العسكرية، وقدر لروما المنتصرة أن تحتل أثينا المهزومة، ولكن مسيرة التاريخ في القرون التالية أثبتت أن مبدأ ولع المغلوب بتقليد الغالب، لم يوضع هذه المرة موضع التنفيذ، وإنما وجد الغالب العسكرى، نفسه مولعا بتقليد المغلوب الثقافى، فسعى الرومان شيئا فشيئا إلى أن ينسجوا إنتاجهم الأدبى والفكرى اللاتينى، على غرار الأدب والفكر اليونانى العظيم، ومن هنا ظهرت في تاريخ الآداب فكرة " المحاكاة" فى واحدة من تجلياتها التاريخية، والتى تمثلت في محاكاة الأدب اللاتينى للأدب الإغريقى القديم وترسم خطاه خطوة بعد خطوة، حتى فى مجالات مفردات الإنتاج. فإذا كان الأدب اليونانى القديم يعرف ملحمة مثل "الإلياذة" فإن الأدب الرومانى المحاكي يصنع ملحمة "الإنيادة" على غرارها، ويتكرر النموذج في مفردات الأدب الأخرى في المسرح والخطابة والشعر وكتب المعالجة النقدية للفنون، ولكن محصلة الأمر، هو وجود هذا التلاقح الثقافي الكبير بين الآداب والشعوب من خلال الحروب.

ولم يكن نموذج اليونان والرومان، هو النموذج الوحيد الذي خرج

على قاعدة ولع المغلوب بتقليد الغالب، والتى كان ابن خلدون مع كثيرين من علماء الاجتماع يروجون لها، ولكن نماذج متعددة ظهرت مؤكدة أو مناهضة، خلال الموجه الكبرى للقاءات الشعوب فخلال عملية الفتح الكبرى التي تم من خلالها انتشار الإسلام، وتداخل الثقافات واللغات، لا يمكن لحركة تاريخ التأثير والتأثر، أن لا تتوقف أمام حركة التتار التى اكتسحت أجزاء من آسيا وأفريقيا في القرن الثالث عشر، وهددت فيها هددت الثقافة الإسلامية، لكنها ما لبثت أن اعتنقت هذه الثقافة، وأصبحت من كبار المدافعين عنها، مع أنها من الناحية النظرية تعد في إطار القوى المكتسحة الغالبة.

تشكل الحروب – إذن – هذا الميدان الثقافي الاجتماعي الواسع الذي يتم فيه امتزاج الشعوب بطريقة قسرية وقاسية، ولكن لحظات الاقتراب الساخنة لا تخلو من لحظات تأمل إنساني، ولحظات محاولة التعرف على الآخر، حتى ولو بهدف التغلب عليه وقهره، ولا تخلو من تمثل لصورته وتأثر بها، وتعاطف معها في بعض الأحايين.

على أن لحظات تأثير الحروب في آداب الشعوب لا تقف عند " اللحظات الساخنة " لهذه الحروب، بل ربما كانت هذه اللحظات، هى الأضعف حظًّا في تبادل التأثر والتأثر الأدبي، الذى يعتمد على لون من

الإرادة والتقبل الاختيارى، لا تسمح به عـادة مثـل هـذه اللحظـات ، وإنـما يتبدى ذلك التأثير بصورة كبيرة في لحظات الهدوء والتقاط الأنفاس، أو حتى في لحظات ما بعد المعارك بالمفهوم العسكرى للحروب.

ولعل فترة الحروب الصليبية تقدم نموذجًا مثاليًّـا للتـأثير المتبـادل بـين الأدب العربي، والآداب الغربية، وهـو تـأثير يتسـع بـه مفهـوم كلمـة الأدب والآداب، فلا يقف المعنى عند الـنص المكتـوب في لغـة مـا، والـذي نـتلمس تأثيره في نص مكتوب في لغة أخرى، كما يحدث في المباحث التقليديـة لـلأدب المقارن، ولكننا نتجاوز في هذه الحالة – على الأقل في واحد من طرفى التأثير – فكرة النص إلى مجالها الأوسع وهو فكرة الصورة أو الانطبـاع المتشـكل لـدى طرف عن الطرف الآخر، وهو انطباع يصاغ دون شك في نص أدبـى، ونحـن – إذن – في هذه الحالة من حالات الدرس الأدبي المقارن، نفتش عـن صـورة أمة في أدب أمة أخرى، أو صورة فرد من أفراد الأمـة في أدب الأمـة المقابلـة، وهى حالـة تشـكّل فرعًـا رئيسـيًّا في منـاهج الأدب المقـارن، لـدى المدرسـة التاريخية أو الاتجاه الفرنسى فيه، وقـد سـبق لنـا أن قـدمنا وفـق هـذا المـنهج دراسات متعددة، لعل مـن أبرزهـا " صـورة المسـلمين في ملاحـم العصـور الوسطى الأوربية " مـن خـلال دراسـة وترجمـة العمـل الملحمـي الفرنسـى أنشودة رولاند *La chanson de Roland*.

ولعلنا أيضًا بحاجة إلى الإشارة إلى مفهوم " الصورة التي تتكون في كتابات أدب ما عن أمة أخرى، أو عن فرد بارز فيها. فتلك الصورة عادة لا يتوخى فيها المطابقة للأصل، ولا المماثلة للحقيقة، وإنما تتشكل عناصر هذه الصورة عادة تشكلا حراً ، وقد تكون بذرتها الأولى في الغالب. منطلقة من صورة حقيقية أو حادثة تاريخية ، أو شائعة متداولة، ولكن مسار الصورة يتجاوز، فيما بعد، الارتباط بعناصر هذه الحقيقة أو تلك الحادثة أو هذه الشائعة، ويتشكل وفق عناصر الجنس الأدبي الذي صُبّت فيه، سواء كان قصيدة غنائية أو رواية شعبية أو مسرحية ممثلة، أو أغنية متنقلة، ويحدث أحيانًا أن تنتقل هذه الصورة من اللغة الوسيطة إلى لغة ثالثة أو رابعة، ويحدث أثناء ذلك الانتقال والتوالد من التغيير ما توحيه طبيعة كل لغة وكل جنس أدبي يستقبل الصورة ويعيد تشكيلها. ومن هنا فإن الصورة غالبًا ما تبتعد عن الحقيقة بمعناها التاريخي بطريقة تجعل الدارسين يطلقون على الكثير من تجلياتها مصطلح الأسطورة *Ca Cégende*، كما حدث فى صورة صلاح الدين في الآداب الأوربية التي عالجتها الدراسات الأوربية غالبا تحت عنوان *Ca Cegende de Saladin* وهو عنوان يحمل في ذاته التبديل الأول في اسم البطل صلاح الدين – كما ينص النطق العربيَ، إلى " سالادان" كما استقر عليه الاسم في اللغات الأوربية.

لكن اسم صلاح الدين لم يكن الاسم الوحيد الذى ورد في الأساطير الأوربية في العصور الوسطى عن القائد الإسلامي، بل وردت معه كثير من أسماء الأمراء والملوك سواء في الجانب الإسلامى أو الجانب المسيحي، وهى أسماء واقعية أو متخيلة، تتحرك على الخريطة التاريخية للقرون الوسطى بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر الميلادي، منذ ظهر السلاجقة على مسرح الأحداث في الشرق الأوسط في أوائل الثلث الثاني من القرن الحادى عشر، وأخذوا يتوسعون على حساب الدولتين الفاطمية والبيزنطية، ومنذ أن هزموا على نحو خاص البيزنطيين في الثلث الأخير من القرن الحادى عشر عام ١٠٧١، وأسروا الإمبراطور رومانوس ديوجينيس، فاستغاث البيزنطيون بالغرب لطلب المساعدة، واندفعت نداءات القساوسة والباباوات، وكان أكثرها إثارة للمشاعر موعظة البابا إربان الثانى في مجمع كليرمونت عام ١٠٩٥ وهى التى حثّ فيها العالم المسيحي على الحرب لتخليص القبر المقدس من المسلمين، ومنح صكوك الغفران للمحاربين الراحلين، ووزع عليهم الصلبان، التى أعطت لهذه الحروب اسم الصليب الذى اختفت وراءه كل أسباب التوسع والنهب والاستيلاء على خيرات الشرق، وتصفية الحسابات بين النورمان والبيزنطيين، وتوسيع مجال التجارة للمدن الإيطالية.

وغير ذلك من الأسباب التى لا علاقة لها بالدين أو الصليب، وتوالت الحملات الصليبية، تقودها أسماء سوف ترد في حكايا الأساطير الأدبية التى تنسج حول صلاح الدين مثل بطرس الناسك في الحملة الصليبية الأولى والكيسوس الأول وريموند الرابع كونت تولوز وجودفرى بويونى وبيمند وتنكرد، كما ترددت أسماء مدن ثم الزحف عليها في هذه الحملة مثل انطاكية وعسقلان والقدس التى استولى الصليبيون عليها سنة ١٠٩٩، وتأسست مملكة القدس اللاتينية، واختير جودفرى بويونى حاكما لها، ولقب بحامي القبر المقدس، كما أسست هيئتا الفرسان الداوية والاسبتارية.

أما الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧ – ١١٤٩ فقد جاءت بعد استيلاء عماد الدين زنكى على الرها، وتأسيس الدولة الزنكية في الموصل، والتصدى للدفاع عن الإسلام، ومطاردة الصليبيين لإخراجهم من كثير من الممالك الشرقية التي أسسوها، وقد دعا إلى الحملة سنت برنارد لكيرفو وقادها كنراد الثالث ملك ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا، ولكن تصدى نور الدين زنكى لهما أفشل حملتهما، وأوقع في الأسر كبار ملوك الصليبيين من أمثال جولسينن الثانى وبوهمند الثالث، صاحب أنطاكية، وريموند الثالث صاحب طرابلس، وبعد وفاة نور الدين، تابع صلاح الدين الأيوبى الذى كان من

رجاله البارزين حملاته مرتكزًا على قاعدة مصر والشام اللـذين اسـتقرَّ فـيهما ومحققا النصر الحاسم على الصليبين في معركة حطين واستولى على القدس من أيدي الصليبين فى العام ذاتـه، وهـو مـا أشـعل نـار الحملـة الصـليبية الثالثـة (١١٨٩ – ١١٩٢) التى كانت ردًّا على انتصارات صـلاح الـدين المتواليـة، وقادها صفوة ملوك أوربا من أمثال فردريك الأول أمبراطور ألمانيا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وكل ما نجحت فيه الحملـة، كـان الاسـتيلاء عـلى عكا والقيام بمجزرة ذبح الأسرى فيها، بعد حصار دام عامين، والفشل التام في استعادة القدس من يد صلاح الدين، وعقـد ريتشـارد هدنـة مـع صـلاح الدين لمدة ثلاث سنوات سمح خلالها للحجاج المسيحيين بـالوفود إلى بيـت المقدس للحج دون أن يتعرض لهم أحد.

وتوالت الحملات الصليبية بعد ذلك حتى وصلت إلى الحملة التاسـعة ١٢٧١ – ١٢٧٢ التى قادها الأمير إدوارد ملك إنجلترا فيها بعد، والتي طـرد فيها المماليك بقايا الصليبين مـن المشرق وطـردوهم مـن عكـا آخـر معـاقلهم سنة ١٢٩١.

ولكن الآثار الأدبية لهذه الحملات كانت قد أخذت في الانطلاق وعـلى

نحو خاص منذ بزوغ نجم صلاح الدين وتحقيقه للمعادلة الدقيقة في شخصية البطل والمتمثلة في القوة والنبل، وتمتعه بأخلاق الفروسية فى صورتها المثلى، وهى تلك الأخلاق التى كان يظنها الصليبيون وقفًا عليهم، وجزءًا من ميراث مجتمعات النبلاء والفرسان عندهم. وهو الظن الذى اصطدم بالواقع المخالف فولد أنماطا من القصص والأساطير المتباينة حول شخصية صلاح الدين، دفعت ببعضها في البدء إلى أن يختلق أساطير مضادة حول شخصيته تدخل بهذه الشخصية إلى عالم المحتالين والغدّارين والخونة أكثر من دخولها بها إلى عالم البطولات والنبالة الخارقة، ويتحول مسار الأساطير - كما سنرى - بعد أن استعصى قبولها النمط الأول، فتحاول جرّ البطل إلى مجال عالم القيم الصليبية المسيحية، ومحاولة نسج حكايات حول أصوله المسيحية والأوربية في مرحلة. وحول رحلاته المتخيلة إلى أوربا في مرحلة تالية.

ولقد ساعدت كل هذه الحكايات التى امتدت إلى معظم الآداب الأوربية بدءًا من القرن الثانى عشر، على نسج موجة قوية من الإبداع الأدبى، تتصل بشخصية البطل العربى المسلم صلاح الدين الأيوبى، وتتخذ أنماطًا مختلفة بين الشعر والنثر والقصص والتغنى ، ويخلق تراكمات هذه

الأعمال على مدى قرون، مجالات خصبة لدراسات أكاديمية تدور حولها لدي الدارسين الأوربيين بدءًا من القرن التاسع عشر في مجال تحقيق المخطوطات، ومقابلة الروايات ، ورصد صورة الشرق في أدب الغرب، ممّا يفتح لصورة صلاح الدين بابا واسعا في مجال الدراسات المقارنة في الآداب الأوربية.

لقد بدأ الدارسون الأوروبيون منذ القرن التاسع عشر اهتمامهم بإعادة النظر إلى هذه الأعمال القصصية والشعرية وإلقاء الضوء عليها، وكان من أشهر هذه الدراسات الدراسة التمهيدية التى قدمها الإيطالي فيور افانتي *Fioravanti* سنة ١٨٩١م حول أسطورة صلاح الدين في الأدبين الإيطالي والفرنسي في العصور الوسطى، وقام بمناقشتها، والتعليق عليها الكاتب الفرنسى الشهير جاستون باري *Gaston Paris* سنة ١٨٩٣ في جريدة العلماء *Journal des Savants*، وامتدت تعليقاته عليها في أربع مقالات متتالية فتحت الباب لكثير من الدراسات حول هذا الإنتاج الأدبى الوفير حول أسطورة صلاح الدين التى كانت تجرى على ألسنة الأوروبيين على اختلاف طبقاتهم منذ أن أحرز نصره المؤزر على جيوش الصليبيين، واستردَّ بيت المقدس منهم، ثم عامل أسراهم ومرضاهم ونساءهم وأطفالهم معاملة الفروسية الحقة، فشملهم برعايته وبرّه، وبالغ في إكرامهم فغدت الألسنة وهي تلهج بالثناء عليه.

والأساطير التي حيكت حول صلاح الدين، يمكن أن تنقسم بصفة عامة إلى قسمين : أساطير معادية لصلاح الدين وهي قليلة، وأساطير مناصرة وهي الأغلبية، وكما يقول جاستون باري(1) : " أن قصص المسيحيين الأوروبيين حول الرجل الذى كان أقوى منافسيهم، والذي حطم مملكة بيت المقدس، هي – بصفة عامة – في صالحه مع أن بعض هذه القصص، وخاصة القديمة منها كانت عدوانية ضده، وذلك يفسره الغيظ والإذلال الذى أحدثه الانتصار المدوي للسلطان الكردي على أعدائه المسيحيين في الشام الذين طردهم من ممالكهم، وعند هؤلاء دون شك تشكّلت في السنوات الأولى الأساطير المعادية، وهى التى انتشرت في الغرب في اللحظة نفسها التى ظهر فيها نصره المؤزر".

وتركز الأساطير المعادية على فترة ظهور صلاح الدين ووصوله السريع إلى مقعد الوزارة في مصر، وانطلاقه من هذا الموقع إلى تجميع القوى الإسلامية ، تمهيدًا لضرب الصليبيين وإجلائهم عن المشرق.

وقد يكون من الضروري استعادة الخطوط العريضة التاريخية لظهور صلاح الدين لنرى في ضوئها إلى أي حد حدث التحريف الأسطوري لهذه الفترة.

(1) Gaston Paris : la legende de Saladin Journal des savantes mais 1893, P. 281.

ويتفق المؤرخون العرب على عراقة الأسرة التى ولد فيها صلاح الدين، ويرى معظمهم أنها أسرة كردية تنتمي إلى أذربيجان، وقد استعربت حين نزلت العراق، ويرى آخرون أنها أسرة عربية تنتمي إلى مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين(١). أو إلى مضر أو عدنان على عادة المؤرخين في الحرص على وجود أصول عربية للشخصيات الإسلامية البارزة، وكان أبوه (أيوب) حاكمًا على قلعة تكريت، وعمه أسد الدين شيركوه مساعدًا له في ظل الدولة السلجوقية، وعندما انتقل منها في العام الذى ولد فيه صلاح الدين استقبلهما عماد الدين زنكى بالموصل، وعيّن والد صلاح الدين واليًا على بعلبك، حيث قضى صلاح الدين طفولته، ثم انتقل في شبابه إلى دمشق في عهد نور الدين زنكي، وكانت مواهب الشاب قد بدأت في التفتح، فأسندت إليه رئاسة الشرطة، وكان اللصوص يعيثون فسادا في دمشق، فأعاد الاستقرار إلى المدينة سريعًا؛ مما جعل شاعرًا دمشقيًا يسجل هذه الظاهرة في مقطوعه طريفة، حيث يقول :

(١) حول تفاصيل آراء المؤرخين في هذه القصة، انظر : قدري قلعجى: صلاح الدين الأيوبي، دار الكاتب العربي، بيروت. والناصر صلاح الدين للدكتور عبد المنعم ماجد، وصلاح الدين الأيوبي لعبد الله ناصح علوان، حيث نوقشت آراء المقريزي وابن خلكان وابن الأثير وغيرهم من المؤرخين.

رويـدكم يـا لصـوص الشـآم فـإنى لكـم ناصـح في المقـال
أتـاكُمْ سَـمِيُّ النبـى الكريــ ـم يوسفَ ربُّ الحجـا والجـمال
فـذاك يَقْطَـعُ أيـدى النسـاء وهـذا يُقَطِّـع أيـدى الرجـال

وفى هذه الفترة جاءت أزمـة صراع وزيـري الدولـة الفاطميـة في مصر ضرغام وشاور، واسـتعان الأول بالصـليبيين، واسـتعان الثـاني بنـور الـدين زنكي الذي أرسل لـه حملة بقيادة شيركوه، ومعه ابـن أخيـه صـلاح الـدين، وانتصرت الحملة على ضرغام وحلفائـه الصـليبيين، واسـتولت عـلى بعـض المدن المصرية، ومنها الإسكندرية التى أسندت إمارتها إلى صلاح الـدين سـنة ٥٦٢ هـ وعمره ثلاثون عامًا، وبعد فترة اتفق حلفاء ضرغام وحلفـاء شـاور (الصليبيون وشيركوه) عـلى أن ينسـحبوا جميعـا، وأن يتركـوا مصر لأهلهـا، وانسحب شيركوه وجيشـه، لكـن الصـليبيين غـدروا وعـادوا إلى مصر مـن جديد، وهاجموا بلبيس، وتقدموا نحو القاهرة؛ فارتكب شاور خطـأه الكبـير وأحرق القاهرة، لئلا تقع فى يد منافسيه، واستدعى الخليفة الفاطمى شـيركوه وصلاح الدين مـن جديـد، فعـادا إلى مصر، وانـتصرا عـلى الصـليبيين، وتـم التخلص من الوزير شاور، وعيّن شيركوه وزيـرًا، ولكنـه لم يعمّـر أكثـر مـن شهرين، وعيّن صلاح الدين وزيرًا عام سنة ٥٦٤ هـ وعمـره اثنـان وثلاثـون

عامًا، وبدأ نجمه في التألق بأول انتصار حاسم على الصلبيين استخلص منهم خلاله مدينة العقبة وهى طريق زيارة البيت الحرام للحجاج المصريين، فازداد الناس له محبة.

هذه هي الخطوط العامة الموجزة لفترة صعود صلاح الدين إلى كرسي الوزارة في مصر، وقد تلتها مرحلة أخرى لتثبيت موقعه، وتجميع قوى العالم الإسلامي لمواجهة الصليبيين، وقد اتسمت هذه الفترة باحتضار الخلافة الفاطمية ، ومحاولة بعض رجالها الاستعانة بالصليبيين ؛ لتثبيت نفوذهم، وإقصاء صلاح الدين، وقد كان من بين هؤلاء نجاح الخصى، الذى كان يلقب بمؤتمن الخليفة، والشاعر عمارة اليمنى، لكن صلاح الدين كان متنبهًا لتدبيرهما، فقضى عليهما، وعلى مؤامراتهما في مهدها، وتنبه كذلك للمؤامرات الخارجية من الصليبيين الذين وجهوا حملة إلى دمياط، فتصدى لها وقهرها، كما تصدى لحملة أخرى وجهها أهل صقلية إلى الإسكندرية سنة ٥٦٩ هـ فهزمها، وكان الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين في مرض الموت، وبموته أكرم صلاح الدين أهله وأعلن الخطبة للخليفة العباسي الذي كان ضعيفًا بدوره، لكنه أعلن الولاء الحقيقي لنور الدين زنكى، وضرب العملة

باسمه، ثم أمر بالدعاء له في خطبة الجمعة، ولم يلبث نور الدين أن مات سنة ٥٦٩ هـ، وتولى مكانه ابنه الصبى الصغير (١١ عامًا) الملك الصالح إسماعيل، وتولى الوصاية عليه شمس الدين بن المقدم، الذي أخذ يكاتب الصليبيين ويهادنهم، والأمراء حوله كل يبحث عن كسب له، وأهل دمشق يدعون صلاح الدين لإنقاذ مدينته التى يجيئها فيستولي عليها باسم الملك الصغير ابن نور الدين، وكذلك يستولي على حمص وحماة رغم عدم تحمس المحيطين بالملك الصغير الذي يموت في سن التاسعة عشرة، ويحكم صلاح الدين قبضته على الشام ومصر، ثم اليمن والمغرب؛ ليتمكن من عقد ما أسماه مؤتمر الأخوة بين المسلمين سنة ٥٧٩ هـ، وليتأهب لمعركة حطين الفاصلة عام ٥٨٣ هـ؛ ليتم فتح بيت المقدس الشهير.

هذه هي الخطوط العامة للسيرة التى دونها معاصروه، وسجلتها الوثائق التاريخية، واعتمد عليها المؤرخون العرب والأجانب في توثيق هذه الفترة[١]، ولكن بعض روايات مؤرخى العصور الوسطى من الأوربيين ممن

(١) انظر: ملكوم كامرون ليونز، و د. أ.ب. جاكسون: صلاح الدين، ترجمة: د. على ماضي، مراجعة: دكتور نقولا زياد، ودكتور فهمى سعد – الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، سنة ١٩٨٨م.

عاصروه أو جاءوا بعده، وبعض الأعمال الأدبية والشعرية والروائية المبكرة، التي اتخذت موقفًا معاديًا من صلاح الدين، عمدت إلى ما ظننه ثغرات في هذا الهيكل التاريخي، أو ظهورًا مفاجئًا غير مبرر، لكى تنسج الحكايات الأسطورية حولها.

ومن أقدم الأعمال الأدبية التى سلكت هذا الاتجاه، قصيدة كتبت باللاتينية، وهى مجهولة المؤلف، وقد كتبت على أوراق الكتاب المقدس، ويحتمل أن تكون قد كتبت في نحو سنة ١١٨٧م قبل الاستيلاء على بيت المقدس بقليل، وفي أبيات القصيدة تظهر الكلمة العربية (مولانا) إشارة إلى الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، كما تظهر كلمة أميرال المشتقة من كلمة أمير البحر العربية، وتحكي القصيدة أن صلاح الدين، تسلل إلى بلاط نور الدين، وأصبح صديقًا لزوجته؛ وبفضلها حظي برضا السلطان، وفى بابليون (القاهرة) تسلل خدعة إلى البلاط بعد أن قتل القاضى الذى سهل له الدخول إلى بلاط مولانا، واستولى على المجوهرات، واستعان بها على مؤامراته، ثم سمّ نور الدين، وقتل ابنه الوحيد، وتزوج أرملته، ونجح خلال هذا في أن يصبح حاكما للمملكة، وبدا هجومه القاسي على المسيحيين.

هذا النمط من التخيل كان يشبع توهم فكرة الدسيسة والمكر، كسبب لظهور شخصية متميزة تستطيع أن تلحق الهزيمة بالصليبيين في هذه الفترة السريعة، ويبدو هنا واضحًا مذاق المرارة لدي الصليبيين الذين عاصروا صلاح الدين في الشام فى ذروة الأزمة، وقبل أن تبلغ الانتصارات مداها في حطين، ويترتب عليها المواجهة الكبيرة لجموع الفرنجة ورعاياهم في الشرق والذي استطاعت فروسية صلاح الدين من خلالها أن تأسر نفوس أجيال كثيرة من الصليبيين أو المسيحيين. ولعل التحامل تتضح – كذلك – في رواية ريتشارد دي لاسانت ترينى وهو أحد الرهبان في مطلع القرن الثالث عشر سنة ١٢٠٠م، والحكاية تتحدث عن الفترة التى تولى فيها صلاح الدين قيادة الشرطة في دمشق فتقول(١) : " إنه تحت حكم نور الدين سلطان دمشق بدأ صلاح الدين نفوذه بجمع جزية شائنة لنفسه من المومسات الفاسدات في هذه المدينة، ولم يكن يسمح لهن بممارسة مهنتهن إلا بعد الحصول على إجازة منه".

وتصور إحدى القصائد التى تسمى أغنية القدس *Chanson de Jerusalem* الخديعة في وصول صلاح الدين إلى الحكم على طريقة حكايات

(١) انظر : ملكوم كامرون ليونز، مرجع سابق، ص ٢٢، نقلاً عن يوميات ريتشارد الأول، ص ٧٢.

ألف ليلة وليلة[1]. فتقول : إن صلاح الدين عندما أراد أن يستولى على مملكة مولانا (الخليفة الفاطمى) لجأ إلى المكيدة، فقد أبلغ الخليفة أنه سينحنى بين يديه للاستسلام، وحين مثل أمامه زحف على أربع قوائم، وعلى ظهره بردعة تصل إلى تاج السلطان، وعندما جاءت اللحظة التى كان عليه فيها أن يقبّل قدم السلطان انتزع سكينًا كان يخفيها، وطعن بها السلطان في قلبه، والتف حوله الرجال، وأصبح سيد القصر، وكان هناك على باب القصر فرسان مسرجان، يعتقد الناس أنهما ينتظران فارسًا مخلصًا من نسل النبي اسمه عليّ، يجئ ويركبهما ويخلص الناس من ظلم المسيحيين، فركبهما صلاح الدين، واعتقد الناس أنه على فاتبعوه.

وتتردد هذه القصة الخرافية في مصادر عديدة في تلك الفترة، مثل الحوليات المسماة: حوليات ما وراء البحار *Chronique d' autre mer* .

ولكن النزعة العدائية لصلاح الدين لا تمثل إلا نسبة ضئيلة أمام الحكايات الأسطورية الكثيرة التى أظهرت الإعجاب به، وحاولت أن تشده بطريقة أو بأخرى إلى عالم المسيحية أو تنسبه إلى أصول أوربية، أو أن تجعله - على الأقل - قد تعلم الفروسية على أيدي فرسان الصليبيين في الشرق، وتأتي

(1) Voir : Gaston Paris op. Cit mai 1893, P.285

إشارة إلى هذه النقطة الأخيرة في رواية ريتشارد دي لاسانت ترينى التي أشرنا إليها من قبل.

وفى إحدى حوليات هذه الفترة وتسمى حوليات(إرنول) *Chronique d' Ernoul* تأتى تفاصيل حول هذه الفكرة الأسطورية مؤداها أن " هون فروا دي ترون" قائد عام مملكة بيت المقدس – وكان في الواقع من أكثر الفرسان شهرة في عصره، وقد تولى الإمارة ١١٦٩ – ١١٧٢م – قد استجاب لطلب الأسير المسلم صلاح الدين - الذي كان أسيرًا في قلعته وافتداه خاله - أن يعلمه الفروسية على الطريقة الفرنسية، فاستجاب الأمير له، وهذه الأسطورة تتردد في صورة مختلفة، ولكنها تدور حول فكرة واحدة هى: أن منبع الفروسية الحقيقية هو في الغرب، وأن من برع فيها من المسلمين مثل صلاح الدين لابد أن يكون قد تلقى أصولها على يد فارس صليبي.

وعند هذه النقطة لا تقف الروايات الأوربية بمعنى الفروسية عند مفهوم الشجاعة، وإنما تنتقل بها إلى مجال الأريحية والكرم والنبل *Generosite*، وهو مجال ضرب صلاح الدين فيه بسهم وافر على مستوى الواقع التاريخى، مما شكّل منطلقًا لكم هائل من القصائد والروايات والأساطير الأوربية التى

ساوت في هذا المجال بين أريحية صلاح الدي، وأريحية الإسكندر الأكبر؛ مما جعل دانتي (١٢٦٥ – ١٣٢١ م) في الكوميديا الإلهية يحشرهما مع كرماء الإنسانية، ويعفيهما من النار، وقد احتلت قصص حسن معاملة الأسرى وتسهيل إطلاق سراحهم مكانًا بارزًا في هذا المجال، مثل حكاية هيجو ملك طبرية الصليبي الذي وقع مع مجموعة كبيرة من فرسانه في أسر صلاح الدين، فأحسن معاملتهم، وأعطى للملك حق أن يختار عشرة من فرسانه يطلق سراحهم دون فدية تكريمًا له، أما بالنسبة له هو فقد فرض عليه فدية قدرها مائة ألف دينار يدفعها حتى يطلق سراحه، وحاول الملك تدبير الفدية وهو في الأسر، فلم يستطع، فسمح له صلاح الدين بإطلاق سراحه على أن يدبرها في خلال عام[1].

وتتعدد القصص الأوربية التي يشير إليها جاستون باري في هذا المجال، مثل قصة دى امرود *Perron d' Emeroude*، وقصة أسر الملك " جى دى ليسنيون" في معركة طبرية.

ولا تتوقف الأريحية في هذه الحكايات عند إعفاء صلاح الدين للأسرى من الفدية أو إطلاق سراحهم، وإنما تصور كرمه معهم فيما يقدمه

(1) Le Legenda de Saladin. journal des savants mai1893. P.285.

لهم من منح ونفقات يستعينون بها على الطريق، وهناك قصة تصور أحد الأسرى الفرنسيين الذى وقع مريضًا فتمَّ علاجه، ثم رغب في العودة إلى بلاده، وأمر صلاح الدين كاتبه بأن يمنحه مائتى مارك نفقة له، فأخطأ الكاتب وسجلها ثلاثمائة، ثم اعتذر وأراد تصويب الخطأ، فقال صلاح الدين : أجعلها أربعمائة؛ لكيلا يقال : إنّ القلم أكرم منى[1].

وهناك قصص كثيرة عن فرسان صليبيين، كانوا يطلقون على أنفسهم اسم الصلاحيين نسبة إلى صلاح الدين، وهؤلاء الفرسان كانوا فرادى أو مجموعات أسرى عند صلاح الدين، فأحسن معاملتهم، أو أطلق سراحهم دون فدية، أو قدّم لهم المعونات عند خروجهم، فكان هؤلاء الفرسان بعد الأسر، يلبسون الشارات الخاصة بصلاح الدين، ويطلقون عند المعارك صيحته المفضلة وهى " دمشق "[2].

أما قصص عناية صلاح الدين بالمرضى، فقد بلغت حدًّا ملحوظًا من الكثرة وسعة الخيال في الآداب الأوربية، مما يدل على فرط عناية صلاح الدين بهذا الجانب الإنسانى، وفي مجموعة شعرية في القرون الوسطى في الأدب الفرنسى تحمل عنوان *Le Menestrel de Reime* تقول إحدى الحكايات: إن

(1) Ibidi., P.286.
(2) Gastom Paris op cit, P. 288.

صلاح الدين كان يتفقد بنفسه المستشفيات، وينفق عليها، وبخاصة مستشفى القديسة جان دارك، وكانت أوامره أن تجاب أيّة رغبة للمريض مهما كانت صعبة، ولكي يتأكد من ذلك تنكر هو نفسه في ثوب واحد من الحجاج المسيحيين، ودخل إلى المستشفى، ومكث به ثلاثة أيام، وكان يرفض الطعام الذي يقدم له، ويقول: إنه يرغب في أكل لحم مهر صغير فوعدوه بتوفيره، فاشترط أن يؤتى أمامه بالمهر حيًّا ويذبح على مرأى منه، فأتوا له بالمهر وأوثقوه وهموا بذبحه، ولكنه قال لهم: لقد غيّرت رأيي، وانا أريد لحم الضأن، فنفذوا له رغبته.

والواقع أن هذه الحكايات وغيرها تسند إلى واقع تاريخيّ ضرب فيه صلاح الدين أروع الأمثلة في معاملة الأعداء عندما يصبحون أسرى أو ضعفاء، أو يكونون مدنيين لا علاقة لهم بالجيوش المحاربة، وبعد فتح بيت المقدس على نحو خاص عامل صلاح الدين الآلاف المؤلفة الذين كانت تكتظ بهم هذه المدينة من الصليبيين معاملة إنسانية راقية، فمع أن معاهدة الصلح، كانت تفرض على من يريد الخروج منهم فدية مقدارها عشرة دنانير للرجل وخمسة دنانير للمرأة، ودينار واحد للطفل، فإن صلاح الدين تجاوز عن هذا كله، وأشرف بنفسه على تأمينهم جميعًا، من يريد منهم البقاء للعبادة،

ومن يريـد الخـروج للسـفر، وأمـر بتزويـدهم بـما يحتـاجون إليـه مـن دواب وأموال، ويجعل الأغنياء منهم يخرجون بأموالهم ومجوهراتهم وحلـيهم كاملـة لا تمس – على غير ما جرت به عادة الجيوش الفاتحة – وأكرم الملوك والأمـراء منهم بنفسه، وقد كان البطريرك اللاتيني ايراكلوس أول مـن غـادر القـدس، وكان يحمل مقدارًا كبيرًا من الأموال والجواهر، فقيل للسلطان : خذ ما معـه؛ لتقوى به المسلمين، فقال : " لا أغدر بـه " ولم يأخـذ منـه غـير عشرة دنـانير، وهمّ بعض الأمراء باعتراض البطريرك، فمنعهم صلاح الدين، ثـم خرجـت الملكة سيسبل يحيط بهـا الأشراف والأمـيرات، فبـالغ السـلطان في إكرامهـا، وأرسلها إلى زوجها الملك جى دي لوسينيان السجين بقلعة نابلس، ومكثـت معه حتى أطلق سراحهما معًا، وكذلك فعل مع الملكة ماريا كومينيوس أرملـة أموري الأول وزوجة باليان، وأمر بحراستها ومـن معهـا مـن بيـت المقـدس حتى طرابلس[1].

(١) بنظر : قدرى قلعجي : صلاح الدين الأيربى، قصة الصراع بين الشرق والغرب خـلال القـرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد، دار الكاتب العربي، الطبعـة الخامسـة، سـنة ١٩٧٩م، ص ٣٣٨ وما بعدها، وعبد الله ناصح علوان: صلاح الدين الأيوبي، مرجـع سـابق ص٢٥٠ ومـا بعدها.

هذا ما فعله صلاح الدين مع الملوك والأمراء، أما عامة الناس فقد كان كرمه معهم غامرًا، فعندما تقدم إليه نساء الصليبيين وهنَّ على وشك الرحيل عن بيت المقدس يسألنه: كيف يواجهن شقاء الحياة إذا هنَّ رحلن، وأزواجهن أو آباؤهن أو أبناؤهن في السجون أسرى، رقّ صلاح الدين لهنَّ وأطلق سراح رجالهن وزودهن بالمال والدواب، أما فرسان المستشفى الذين كانوا يعرفون بالاستبارية؛ وكانوا من أشد محاربي صلاح الدين، فقد سمح لهم بالبقاء في القدس للعناية بالمرضى المسيحيين الذين لم يستطيعوا الخروج، وعندما لا حظ عدم قدرة بعض الصليبيين على دفع الفدية الرمزية التى تم الاتفاق عليها تبرع هو من ماله، بدفع فدية عشرة آلاف منهم، وتبرع أخوه الملك العادل بدفع فدية خمسة آلاف، ورتَّب لهم أمر السفر والنفقة؛ حتى يبلغوا مأمنهم، وعندما حلّ أول عيد ميلاد للمسيح على من بقى من الصليبيين في بيت المقدس، فوجئوا بصلاح الدين ورجاله يطرقون عليهم أبواب بيوتهم ليلاً لكى يقدموا لهم ولأطفالهم هدايا عيد الميلاد[1].

لقد أدت شدة الإعجاب برمز صلاح الدين في الآداب الأوربية إلى الدخول به في مناطق أسطورية تجعل هذه الشخصية منتميّة إلى أوربا بالعقيدة أو بالنسب أو بالرحلة إليها.

(1) Saladin les plus pur heros de le I'slam champdor, P.188.

وفيما يتصل بالنسب فقد نشأت في هذه الآداب أسطورة تتحدث عن أن صلاح الدين ولد من أمّ فرنسية كانت دوقة لبونتيو *Contes de Pontieu*، وكانت تقيم في بيت المقدس، ثم ذهبت إلى مصر بطريقة غامضة، فتزوجها رجل يسمى صلاح الدين، وأنجب ولدًا سمّاه صلاح الدين أيضًا، وهو فاتح بيت المقدس، والأسطورة تريد أن تقول : إن أخوال صلاح الدين من فرنسا، وإن فرنسا شريكة في المجد الذي حقّقه، وقد بلغ من شيوع هذه الأسطورة أن اعتبرها المؤرخ جون دى لونج سنة ١٣٧٠م إحدى الحقائق التي أثبتها في كتابه عن صلاح الدين(1).

أما اقتراب صلاح الدين من المسيحية، فقد تحدثت عنه كثير من الحكايات والقصائد؛ حيث فسرت تعاطف صلاح الدين مع الديانات المختلفة بأنه حيرة بينها أو انتماء إليها، وهناك قصة نمساوية ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي كتبها جون إنكل *J.Enikel* تجعل صلاح الدين عندما يقترب من الموت يتساءل إلى أي إله سوف تصعد روحه: إله المسلمين أو اليهود أو المسيحيين؟ وفي مراحل التساؤل حاول أن يوفق بين الثلاثة، وكان لديه مائدة كبيرة، مصنوعة من الياقوت الخالص، فقسّمها إلى ثلاثة أقسام أرسل قسمًا منها للمسجد ، وقسمًا للكنيسة وقسمًا للبيعة.

(1) Voir Gaston Paris Op. eit .

ولكن هناك حكايات أخرى تشده نحو المسيحية، مثل القصة التى كتبها بوسون دى جوبيو *Buson de Gubbieu* ، والتى جعل فيها صلاح الدين يعتنق المسيحية، ويحاول إصلاحها من الداخل، فيقوم برحلة إلى أوربا، حيث يرى مطامع القساوسة والباباوات والكاردينالات، فيقول متهكمًا: لا شك أن المسيحية إلهها راضٍ عن هذه المفاسد التى لا يرضى عنها إله المسلمين ولا إله اليهود[1].

وقد كان هذا بداية لتوجيه النقد الديني من خلال الأعمال الأدبية في تاريخ المسيحية، على النحو الذى صنعه فيما بعد بوكاشيو في قصته إبراهام اليهودي الذي زار روما ووجه نقدًا مماثلاً للمسيحية، وصنعه من بعده فولتير في الرسائل الفارسية. وقد تمّ من خلال شخصية صلاح الدين توجيه كثير من النقد للشعائر المسيحية، كما حدث في قصيدة (أغنية القدس) التي تجعل صلاح الدين يزور المسيحيين، ويشترك في الصلوات معهم، لكنه يرى أن تقديم القرابين للكهنة يعد نوعًا من الخداع والرشوة، ويبدو أمرًا مضحكًا، غير أن القصص التى كانت تروى على ألسنة الوعاظ والقساوسة وتوجه إلى الحجاج، كانت تجعل من صلاح الدين مسيحيًّا دون تحفظ، كما هو الشأن في قصيدة الشاعر جيل دى كوربيل *Gilles de Gorbeil* التى كتبها سنة ١٢١٥.

(1) Ibid

أما نزعة الذهاب بصلاح الدين إلى أوربا، وجعله يقوم برحلات إلى أرجائها، فقد ظهرت في كثير من الآداب الأوربية خلال هذه الفترة، وبالإضافة إلى قصة بوسون السالفة الذكر هناك رحلات أخرى يعتمد بعضها على أسطورة دوقة بونتيو التى تنسب صلاح الدين إلى أمٍّ فرنسيّة، وتجعله إحدى الحكايات يذهب في صحبة خاله دوق بونتيو وملك طبريّة الذى كان قد علم صلاح الدين الفروسية في أسطورة أخرى، وبعد أن يمرّ بروما، وبعض المدن الأوربية يصل أخيرًا إلى باريس، حيث يلتقي بأقاربه هناك، ويذهب إلى قصر الملك فيليب ولم يكن الملك موجودًا، فاستقبلته الملكة التى أعجبت بعه أعجابًا شديدًا ووقعت في هواه، وخلال هذه الرحلة التقى بالملك في (سان أومير) وتحت إشراف الملك نظمت مسابقة في الفروسية في كامبري اشترك فيها صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد، وفاز فيها صلاح الدين فازداد الإعجاب به وزادت الملكة عشقا له، حتى إنها عندما ودّعته لم تخف ذلك، فهمست في أذنه وجسدها يرتعد ارتعادًا واضحًا على مرأى من الجميع.

وأسهم الأدب الإسباني بدوره في تجسيد أسطورة رحلات صلاح الدين إلى أوربا، فكتب جون مانويل في منتصف القرن الرابع عشر قصة تتحدث عن صلاح الدين العاشق الباحث عن الحكم، وتنطلق من القاهرة،

حيث يحب صلاح الدين امرأة مصريّة بالغة الجمال والاكتمال، وعندما يطلب ودها تشترط عليه أولاً أن يجيب عن السؤال التالي : " ما أجمل خصلة يمكن أن يتحلى بها الرجل، وتصبح مصدرًا لكل الخصال الحسنة الآخرى؟

وفكّر طويلا ولم يجد إجابة شافية، وسأل المحيطين به دون جدوى، وأخيرًا قرّر أن يرحل بحثًا عن إجابة للسؤال، فتنكر في زي شاعر جوّال مع اثنين من أصدقائه ورحلوا إلى أوربا، وفى إيطاليا لم يجد جوابًا على سؤاله، وفى فرنسا لم يقتنع بما قيل له، أما في إسبانيا، فقد التقى بأحد الفرسان فطرح عليه السؤال، فقال له الفارس : ربما يكون أبى العجوز الحكيم على معرفة بالإجابة، واصطحبه إلى أبيه، وما إن رأي العجوز الشاعر الجوال المتنكر حتى عرف أنه صلاح الدين، فقد كان قد وقع أسيرًا في الحروب الصليبية عندما كان شابًا، وأحسن صلاح الدين معاملته، لكنه كتم معرفته به، وسمع سؤاله، فقال له: لدى الجواب "إنه الشرف" الذى تتفرع عنه كل الفضائل، ثم همس في أذنه: لقد عرفتك أيّها الفارس الشريف، وعاد صلاح الدين إلى مصر، فاقتنعت الحسناء المصريّة بإجابته.

إن هذه الصورة التي رسمتها الآداب الأوربية لصلاح الدين الأيوبي تتسم بالإعجاب والانبهار بخصائص قائد نبيل يجمع إلى جانبه القوة والشجاعة التي استغلها إلى أبعد مدى في استرداد بيت المقدس، وقهر ملوك الغرب مجتمعين أو منفردين، ولكن هذه الصفة التي ظهرت في تاريخ كثير

من القواد العسكريين المنتصرين، لم تكن وحدها دافع الإبهار التى جعلت تقاليد الآداب الغربية يستقرّ في وجدانها، اعتبار عظمة صلاح الدين ملمحًا لا يتسم به إلا كبار القادة من أمثال الإسكندر الأكبر، المقدوني، مما جعل دانتى في الكوميديا الإلهية يقرّب بين صلاح الدين والإسكندر الأكبر ويجعلها معًا من عظماء الإنسانية (غير المؤمنين بالمسيحية) ويدرجها معا في مرتبة مخففة من مراتب الجحيم؛تخفيفا عنهما جزاء ما قدم للإنسانية من أعمال رائعة.

لم تكن هذه البطولة العسكرية الفائقة، وحدها سرّ إعجاب المغلوب بالغالب، وإنما كانت صفة الرحمة بالأسرى والضعفاء وصفة الكرم مع أعدائه من الفقراء، وصفة احترام نساء محاربيه من القواد أو عامة الجند، وصفة عدم التعرض لعقائد مخالفيه الدينية، بل وتقديم واجبات الاحترام، لشعائرهم ولأماكن إقامة طقوسها، وهذه الصفات المختلفة، هى التى كانت تشكّل في تراث أوربا المسيحية في العصور الوسطى تقليدا مثاليًا يتم التمدح به والتغني بنموذجه، والحلم بأن يتحقق في شخصيه ما ويسمّي بتقليد الفروسية *Chevalerie*،ومن يتحقق فيه هذا التقليد أو جانب منه يسمى *Cheveleresque* أبّى الأب الشهم، لكن هذه التقاليد ذاتها، ربطت ربطًا وثيقًا بين تقاليد الفروسية والديانة المسيحيه، بحيث أصبح من الصعب تصور وجود من يحمل صفة الفروسية من غير المسيحيين الأوربيين، ولم تكن درجة

الحضارة تسمح في ذلك الوقت بالاعتراف بفضائل الآخر، بل إن كلمة الآخر في اللغات الأوربية لذلك العصر كان يطلق عليها مصطلح *Barbare* ، وهى مشتقة من الكلمة اللاتينية *Barbarus* التي تشير منذ عصر الإغريق والرومان، إلى معنى الأجنبي والمتوحش غير المتحضر في وقت واحد.

ومن هنا فإن العقدة في كثير من القصص الأوربية التى أشرنا إليها حول صلاح الدين، كانت صعوبة الجمع في أذهان رواة العصور الوسطى بين صفات الفروسية البارزة فيه، وبين حقيقة انتمائه إلى مجتمع عربي إسلامى – ولهذا فقد حاولت جوانب من الحكايات التشكيك في الفروسية في الفترات التاريخية الأولى، أو التشكيك في الانتماء العربي الإسلامي في فترات الحكايات المتأخرة.

* * *

المعضلة التى واجهت بطريقة أو بأخرى الكتاب العرب في عصر صلاح الدين، وهم يرسمون صورة الفرنجة في آدبهم ، ويواجهون نسبة بعض صفات الفضائل أو الفروسية إليهم كانت مماثلة لما واجهه كتاب الفرنجة وهم يصورون فضائل صلاح الدين، ولكن طبيعة النظرة إلى الآخر، كانت أقل حدة لديهم، وكانوا على استعداد للاعتراف بجانب من فضائلهم، والسخرية من جوانب أخرى من سلوكهم، وكان مصطلح الفروسية من المصطلحات التى كان يجرى بوضوح تداولها في كتابات العصر مع نسبته إلى الطرفين كما كان الشأن في كتابات واحد من فرسان وأدباء عصر صلاح الدين، وهو الأمير أسامة بن منقذ (٤٨٨ – ٥٨٤ هـ) صاحب الجولات الواسعة في قيادة الفرسان المسلمين الذين تصدوا للحملات الصليبية وأبلوا فيها بلاء حسنًا، وهو في الوقت ذاته، صاحب العلاقات القوية مع أمراء وفرسان الصليبيين في فترات الهدنة، وهى علاقات سمحت له بالاقتراب الشديد من عالمهم الداخلي، ودراسة تقاليدهم ونظمهم الاجتماعية، والكتابة عنهم بحياد شديد في سيرته الذاتية الرائعة التي سمّاها " الاعتبار" وكانت

وما تزال موضع اعتبار الدارسين في الشرق والغرب، وكان أسامة بن منقذ إلى جانب ذلك ، من كبار شعراء الفرسان في عصره، ولقد أدركه صلاح الدين الأيوبي، وهو في شيخوخته لكن ديوانه الحماسيّ كان قد سبقه إلى خيمة صلاح الدين العسكرية، فقيل إنه لم يكن يحضر معركة إلا وديوان أسامة بن منقذ بين متاعه القليل في مخيمة.

ولكننا قبل أن نستعرض صورة الفرنجة في كتابات أسامة بن منقذ، وخاصة في كتابه "الاعتبار" ونرى إلى أى مدى اعترف بجانب من تقاليد الفروسية لهؤلاء الفرنجة ، على عكس ما يصنع كتابهم، وهم يتحدثون عن فرسان المسلمين، نوّد أن نتوقف قليلاً أمام مصطلح الفروسية في تراث التقاليد العربية الإسلامية، لنعرف إن كان هذا المصطلح قد وفد إلى العرب مع عصر الحروب الصليبية، أو أنه بذاته يضرب بجذور بعيدة في التراث باعتباره مصطلحًا ذا تقاليد واضحة مفصلة؟

والواقع أنَّ مصطلح الفروسية الذي يدور حوله الحوار هنا، مصطلح قديم في التراث العربيّ والنصوص التي تشير إليه تنتمي إلى معظم عصور التدوين التي عرفها ذلك التراث، وإذا كان المعنى الرئيسى لهذا المصطلح ينطلق من ركوب الفرس، وما يحيط به من تقنيات ومواهب، فإن المعاني الفرعيّة التي تستشف في كثير من النصوص تشير إلى الصفات المعنويّة

المرتبطة بالفارس، وهى الصفات التي شكّلت في مجملها مفهوم الفروسية كما عرف في العصور الوسطى، وكما جسّدته على نحو خاص كتابات أسامة بن منقذ وتصرفات صلاح الدين الأيوبي، وهذا المفهوم نفسه كان بعد ذلك موضع تنازع بين الآداب الأوربية والأدب العربي، كل يدعى السبق إليه والتأثير في، الآخر من خلاله.

وكلمة الفروسية أو جذورها ومشتقاتها، ترِّد في حديث نبوي شريف " علموا أولادكم العوم والفراسة".

وصاحب لسان العرب يقول في تفسيرها : " الفراسة بالفتح : العلم بركوب الخيل وركضها من الفروسية، والفارس : الحاذق بما يمارس من الأشياء كلها، وبها سمّى الرجل فارسًا، وابن الأعرابي يقول: فارس في الناس: بَيِّنُ الفراسة، وعلى الدابة : بَيِّنُ الفروسية"(1). والذي نقله ابن منظور عن ابن الأعرابي تداولته المعاجم قبله، ويشير إليه واحد كابن دريد في الجمهرة في القرن الرابع الهجري(2).

أما استخدام المصلح عرضًا في كتب التاريخ، أو معاجم البلدان أو الطبقات فإنه يعطى الظلال نفسها من المعنى ، ومنذ فترة مبكرة تمتد إلى قرون

(1) انظر لسان العرب لابن منظور، مادة فرس.

(2) جمهرة اللغة لابن دريد ص ١٦٠٥.

التأليف الأولى، فها هو محمد بن جرير الطبرى (٢٢٥ - ٣١٠ هـ) في تاريخ الأمم والملوك[1]، أثناء حديثه عن التقاء عسكر المبرقع مع عسكر رجاء يقول : " فلما التقوا تأمل رجاء عسكر المبرقع، فقال لأصحابه : ما أرى في عسكره رجلاً له فروسية غيره".

وها هو ابن أبى أصيبعة صاحب طبقات الأطباء[2]. ينسب إلى جالينوس حكاية عن أمراة جليلة القدر كانت تعشق رجلا له فروسية وتكتم ذلك، فتعرّف على قصتها من نبضها الذي يزداد إذا جاءت إشارة إلى ذلك الرجل، وعندما يتحدث ياقوت الحموى في معجم البلدان[3]. عن إحدى البلاد يقول :" ولأهلها فروسيّة وبأس شديد وقد قهروا جميع من حولهم"، أما البغدادى صاحب خزانة الأدب[4]. عند حديثه عن مقتل المتنبى، فيقول : " وحمل فاتك على المتنبى وطعنه في يساره ونكسه عن فرسه، وقال بعض من شاهده (المتنبى) إنه لم تكن فيه فروسية، وإنما كان سيف الدولة سلمه إلى

(١) انظر : ص ٣٧٢٣.

(٢) انظر : ص ٦١٣.

(٣) انظر : ص ٦٤٨.

(٤) انظر : ص ٥٣٦.

النخاسين والرواض بحلب، فاستجرأ على الركض والحصر، فأما استعمال السلاح فلم يكن من عمله.

وإذا كان كثير من هذه المعانى، ينطلق من دائرة الصفات المحسوسة التى تدور حول حسن استخدام الفرس في القتال، فإنه يصل إلى الدائرة المعنّوية التى تكملها، فأصحاب المعاجم عندما يفسرون الحديث الشريف :" **اتقوا فراسة المؤمن"** نبهوا "إلى المعاني التى تربط الفراسة والفروسيّة والمعرفة، فيقال في اللغة : إنه لفارس في هذا الأمر إذا كان عالما به، ويقال : هو أفرس الناس، أى أجودهم وأصدقهم فراسة(1).

فدوائر الشجاعة والعلم والفطنة والجود تلتقي كلها تحت ظل كلمة الفروسية، ومنها تنبثق آداب هذه الخصلة، التى فصلتها كتب كثيرة في التراث العربي، وبينت الكثير من آدابها وتقاليدها التى تمتد إلى دعوة القرآن الكريم: **﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾** حيث يبدو التدرب على الخيل وتربية القوة البدنية واجبًا دينيًا.

والواقع أن الذى يتأمل قوائم المؤلفات في المكتبة العربية، يجد أن هذه المكتبة قد اهتمت منذ وقت مبكر بتوفير كتب الفروسية المؤلف منها

(1) لسان العرب، مادة : فرس.

والمترجم، وكان الخلفاء أنفسهم يطلبون إعداد كتب في هذا المجال أو ترجمة ما يتوافر منها في اللغات الهندية والفارسية، استجابة لمتطلبات جيوش إمبراطورية كبرى تجوب آفاق العالم، وتحمي ثغور العالم الإسلامي المترامية.

وابن النديم في كتابه الفهرست على سبيل المثال يعقد فصلا يسميه الكتب المؤلفة في الفروسية وحمل السلاح، وآلات الحرب والتدبير والعمل بذلك لجميع الأمم، وهو يشير إلى طائفة كبيرة من هذه الكتب، منها كتاب "الحيل" للهرثمى الشعرانى الذي ألّفه بطلب من الخليفة المأمون في فنون الحرب، وجوّد في تأليفه، وجعله في مقالتين اشتملنا على أكثر من ألف باب، وكتاب آخر لعبد الجبار بن عدى كتبه عن آداب الحرب بطلب من الخليفة المنصور، وكتاب أشميطى في الفروسية، وهو كتاب كما يقول ابن النديم في آداب الحروب وفتح الحصون والمدائن وتربيض الكمين، وتوجيه الجواسيس والطلائع والسرايا، إضافة إلى كتب أخرى ترجمت عن الفارسية والهندية في فنون الرمي أو الضرب بالصوالجة أو تدبير الحروب وغيرها من الكتب التى يشير إليها ابن النديم، بما يعنى توافر المؤلفات والمترجمات عن الفروسية وآدابها وتقاليدها فى التراث العربي قبل مجئ الصليبيين إلى الشرق بقرون عدة.

ولا شك أن كتابًا مثل كتاب الفروسية لابن القيم[1]. (٦٩١ – ٧٥١هـ) يعد من أجمع الكتب التي جمعت ما تفرق في الكتب السابقة عليها من آداب، ويكفي إلقاء نظرة على الموضوعات التي يشتمل عليها الكتاب – وقد لخص العنوان جانبًا كبيرًا – لنعلم إلى أي مدى كان اهتمام علماء العرب والمسلمين بتأصيل هذه التقاليد على مستوياتها الحسيّة والمعنويّة في نفوس الفرسان المسلمين.

ويؤكد ابن القيم على أن شقّ الفروسية المعنوي لا يقل عن شقّها الحسيّ فيقول[2]. ولما كان الجلاد بالسيف والسنان، والجدل بالحجة والبرهان كالأخوين الشقيقين والقرينين المتصاحبين، كانت أحكام كل واحد منهما شبيهة بأحكام الآخر ومستفادة منه، فالإصابة في الرمي والنصال كالإصابة في الحجة والمقال، والطعن والتبطيل نظير إقامة الحجة، وإبطال حجة الخصم، وجواب القِرْن عند دخولك عليه كجواب الخصم عما يورده عليك،

(١) الفروسية (سباق الخيل والإبل – الرمي – المصارعة – السباحة – الركض – حكم النرد والشطرنج) تأليف ابن القيم الجوزية، الإمام شمس الدين بن عبد الله محمد بن أبى الزرعى الدمشقى، تحقيق : محمد نظام الدينى الفتيح، مكتبة دار التراث للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٢) المصدر السابق : ص ٧٠.

فالفروسية فروسيتان : فروسية العلم والبيان، وفروسية الرمي والطعان، ولما كان أصحاب النبي (ﷺ) أكمل الخلق في الفروسيتين فتحوا القلوب بالحجة والبرهان، والبلاد بالسيف والسنان، فعلم أن الجدال والجلاد من أهم العلوم، وأنفعها للعباد في المعاش والمعاد".

وقد ارتبطت تقاليد الفروسية بمظاهر دينية في التراث الإسلامي، وكانت طقوسها أشبه بالعبادة، وقد روي في الأثر الشريف أن قومًا كانوا يتناصلون، والرسول شاهد، فقيل : يا رسول الله، قد حضرت الصلاة، فقال : " إنَّهم في صلاة" فشبّه رمي النشاب بالصلاة.

ويرسم ابن القيم صورة لميدان الرمي وتدرب الفرسان والرماة على استخدام الأسلحة، أشبه بصورة مجلس العبادة، محدّدًا من تقاليدها ما يدل على امتداد جذورها، ورسوخ مفاهيمها في التراث الإسلامي منذ عصر الدعوة، وذلك خلال فصل ممتع يعقده في كتاب الفروسية تحت عنوان " آداب الرمي " يقول فيه[1]: ينبغى للمناضل أن يعد رواحه إلى المرمى كرواحه إلى المسجد، واجتماعه بمن هناك كاجتماعه برؤساء الناس وأكابرهم ومن ينبغى احترامه منهم، ولا يعد رواحه لهوًا باطلا ولعبًا ضائعًا، بل هو كالرواح

(١) المصدر السابق : ص ٢٧٥.

إلى تعلم العلم، فيذهب على وضوء ذاكرًا الله عزّ وجل، عامدًا إلى روضة من رياض الجنة، وعليه السكينة والوقار، فإذا وصل إلى الموضع دخل بأدب، وسلم ووضع سلاحه، وحسن أن يصلي ركعتين، ثم يدعو الله سائلا التوفيق والسداد.. ثم يخرج قوسه ويتفقده ويتفقد سهامه فيمرها على إبهامه، وينظر ما ينبغي الرمي به. ويتفقد وتره، فإن رمى منافسه لم يبكته على خطأ ولم يضحك عليه منه.. ولا يحسده على إصابته، ولا يصغرها في قلبه، ويقول: رمية من غير رام، ونحو هذا الكلام ولا يحسن أن يحد النظر إلى رسيله(منافسه) حال رميه، فإن ذلك يشغله ويشوس عليه قلبه، وينبغي أن يخرجوا هذا من بينهم، فإذا وصلت النوبة إليه، قام وشمرّ كمه وذيله، وسمى الله وأخذ سهامه بيمنه وقوسه بيساره، ووقف على موقفه بأدب وسكينة، ووقار، وإطرق ولباقة وخفة.. ثم يأخذ السهم فيديره على إبهامه، ويمسك القوس بلباقة، ويفوق عليه السهم كما ينبغي، ويعتمد على وسطها ويمده، فإذا بلغ نهايته سكن قليلا ثم أطلق فإذا خرج السهم تأمل موضع وقوعه.. فإذا أصاب حمد الله تعالى وأثنى عليه، وإن أخطأ فلا يتضجر ولا يتبرم ولا ييأس من روح الله، فخطأ هذا الباب أحب إلى الله تعالى من الإصابة في أنواع اللعب سواه، ولا يشتم قوسه ولا سهمه ولا نفسه ولا أستاذه، فإن هذا

كله من الظلـم والعـدوان.. ولـيعلم أن الخطـأ مقدمـة الصـواب، والإسـاءة مقدمة الإحسان".

هذا هو المنـاخ الـدينى والعلمـي والتطبيقـي الـذى نمـت فيـه تقاليـد الفروسية الإسـلامية قبـل الحـروب الصـليبية، والتـى اسـتطاع مـن خلالهـا المسلمون أن يحرزوا – من ناحية – انتصـاراتهم المدويـة عـلى معظـم جيـوش العالم الوسـيط، وأن يـؤثروا – مـن ناحيـة ثانيـة – بسـلوكهم النبيـل خـلال الحروب على نفوس الشعوب التى التقوا بها. فيكون ذلك السلوك نفسه ليس أقل أثرًا في رسم صـورة فروسـيتهم، وإقنـاع النـاس بمبـادئهم وشـجاعتهم ومهـارتهم في الحـروب، وتلـك هـى الحالـة التـى وجـد الصـليبيون عليهـا المسلمين عندما التقـوا بهـم، ولا شـك أن موجـات كثـيرة مـن المـدّ والجـزر اعتورت هذه اللقاءات لصالح هذا الفريق أو ذلـك، وكـان كـل فريـق يـرى مزايا الآخر وعيوبه ويستفيد منها، لكن الاعتراف بمزايا الآخر يتطلـب دائـمًا قدرًا كبيرًا من الشجاعة الحضاريّة، فكيف تجسدت فروسية كل طرف في عين منافسيه.

إن الكتابات الأدبية المتصلة بفترة الحروب الصليبية واللاحقة عليهـا في الجانبين، تقدم لنا فكرة عن صورة كل طرف في أعين الطرف الآخر.

في الجانب العربي تبقى كتابات أسامة بن منقذ (٤٨٨ – ٥٨٤ هـ) شاهدًا شديد الأهمية من الناحية الأدبية والتاريخية والتجريبية، على روح الكتابة الأدبية العربية المعاصرة لصلاح الدين فلقد كان أحد فرسان هذه الفترة البارزين، وأحد كتّابها المعدودين، وشعرائها البارزين، وقد امتد به العمر حتى جالس صلاح الدين، بعد أن جاوز الثمانين، وقد سجّل لنا هذا كله في سيرته الذاتية الفريدة " الاعتبار "(١).

وكان أسامة قد ولد عام ٤٨٨ هـ قبل سنتين من اندلاع الحروب الصليبية بدعوة البابا أوريانوس الثاني، وعندما كان عمره أربع سنوات سقطت القدس في أيدي الصليبيين عام ٤٩٢ هـ وعاش أسامة سحابة عمره في ظل الكفاح لاسترداد القدس الذي استمرّ واحدًا وتسعين عاما، وامتد معه عمر أسامة شاهدا مدونًا، حتى استردها صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ ، قبل عام واحد من وفاة أسامة سنة ٥٨٤هـ.

عاش أسامة إذن ستة وتسعين عامًا معظمها في حروب الصليبيين،

---

(١) الاعتبار " تأليف : أسامة بن منقذ ، مؤيد الدولة أبو مظفر، أسامة بن مرشد الشيزري – مراجعة وتدقيق : الدكتور حسن الزين – دار الفكر الحديث للطباعة والنشر – بيروت – سنة ١٩٨٨م.

واشـترك في أكثـر مـن عشريـن معركـة، وظـل يقاتـل بسـيفه حتـى بلـغ السبعين[1].من عمره، ثم عكف على التأليف، وكان ديوان شعره من الدواوين المأثورة في خيمة صلاح الدين الأيوبي، وحين استقرّ صلاح الـدين في دمشـق سنة ٥٧٠ هـ، استدعى أسامة إليه وجعله مـن جلسـائه، وكـان عمـره اثنـين وثمانين عامًا، وقد ظل أسامة بطـلاً بـارزًا في محاربـة الصـليبين زهـاء خمسـين عاما متتالية، منذ اشـتراكه في حصـار قلعـة كفـر طـاب التـى كانـت بأيـدي الصليبيين سنة ٥٠٩ هـ، وعمره آنذاك ٢١ عاما، حتى مشاركته لنـور الـدين زنكـى في معركـة (حـارم) ضـد الصـليبيين سـنة ٥٥٧ هــ وعمـره آنـذاك ٦٩ عاما[2]. وخلال هـذه الفـترة اخـتلط أسـامة بالصـليبيين ومجتمعـاتهم في الشرق العربي، ليس فقط اختلاط المحارب، وإنـما إضـافة إلى ذلـك اخـتلاط المهادن والمسالم والمفاوض والمعاهـد والبـائع والمشـتري والصـديق في بعـض الأحيان، وكان خلال هذا كله دقيق الملاحظـة، وأمينًـا يسـجّل مـا لهـم ومـا عليهم، بما في ذلك فروسيتهم وشجاعتهم، ويسـجّل كـذلك مـا فى صـفوف

(١) لتفاصيل معارك أسامة ، ومواقفه البطوليـة، انظـر : كتـاب أسـامة بـن منقـذ : الأمـير الفـارس والأديب الشاعر، سيرة حياتية، بقلم : أحمد قدري الكيلاني، المكتبة العربية – حماة – سـورية – سنة ١٩٧٧.

(٢) لمزيد من التفاصيل، انظر المرجع السابق ص ١٦ وما بعدها.

المسلمين من فروسيّة من مختلف الطبقات، السادة والموالي والشباب والشيوخ والنساء في بعض الأحايين ويسجل إلى جانب ذلك نقاط الضعف حين توجد، وفى أحد نصوص كتابة "الاعتبار" يسجل الفروسية في مجتمع الصليبيين فهو يقول[1]:

" والإفرنج – خذلهم الله – ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوي الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان، فهم أصحاب الرأي، وهم أصحاب القضاء والحكم، وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس منّا وبيننا وبينهم صلح، وأنا إذ ذلك بدمشق، فقال الملك لسبعة من الفرسان: قوموا اعملوا له حكمًا، فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم على شيء واحد.. وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك، ولا أحد من مقدمي الفرنجة أن يغيره ولا ينقضه، فالفارس عظيم عندهم".

ويؤكد أسامة كذلك أن الفرنجة يظهرون السرور عندما يعلمون أن محدثهم فارس، ولو كان من أعدائهم:" ولقد قال لى الملك (الصليبي): يا فلان وحق دينى لقد فرحت البارحة فرحا عظيمًا قلت : الله يفرح الملك ، بماذا

(١) الاعتبار : ص ٦٦.

فرحت ؟ قال : قالوا لى أنك فارس عظيم، وما كانت أعتقد أنك فارس، قلت : يا مولاى أنا فارس من جنسي وقومي[1].

ويشير أسامة إلى العقيدة الراسخة لديهم، وهى أنهم أهل الفروسية الحقة، وأن على من يريد أن يتقن الفروسية أو يعلمها لأبنائه أن يذهب إلى منابعها الأصلية في بلادهم، ويورد نصيحة صديق من الصليبيين له في هذا الصدد، يقول أسامة بعد أن يعترف بأن الإفرنج ليس فيهم إلا فضيلة الشجاعة، والقتال لا غير[2]. : وكان في عسكر الملك فلك بن فلك، فارس محتشم إفرنجى قد وصل من بلادهم يحج ويعود فأنس بي، وصار ملازمي، يدعوني : بأخي، وبيننا المودة والمعاشرة، فلما عزم على التوجه في البحر إلى بلاده، قال لي : يا أخي أنا سائر إلى بلادي وأريدك أن تنفذ معي ابنك (وكان ابني معي وهو ابن أربع عشرة سنة) يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل، فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل، فإن ابنى لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج، فقلت: وحياتك هذا الذي كان فى نفسي، لكن منعنى من ذلك أن

(١) المصدر السابق الصفحة نفسها.

(٢) المصدر السابق : ص ١٢١ .

جدته تحبه، وما تركته يخرج معي حتى استحلفتني أني أرده إليها قال : وأمك تعيش، قلت : نعم قال : لا تخالفها".

وهو إلى جانب هذه الشهادات القولية، يرصد مواقف فعلية لشجاعة الشجعان منهم، وكان فيهم فرسان معروفون بفرط شجاعتهم وقوتهم، وأسماؤهم معروفة لدى المسلمين، وأسماء نظرائهم من كبار فرسان المسلمين معروفة لديهم، وكل منهم في مواقف النزال يبحث عن الآخر، يحكي أسامة عن أحد فرسان الصليبيين المشهورين واسمه (بدرهوا) وعن منافسه الفارس الإسلامي الشهير (جمعة) ويحكى عن شجاعة الفارس الصليبي في إحدى المواقع على نهر العاص بمدينة (أفامية) يقول[1] : " نزل علينا عسكر أنطاكية وضرب خيامه في الموضع الذى كان ينزله وبيننا وبينهم الماء(نهر العاص)، ولنا مركب واقف على شرف مقابلهم، فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت موكبنا، والماء بينه وبينهم، وصاح بهم فيكم جمعة؟ قالوا : لا وكان ذلك الفارس (بدرهوا) فالتفت فرأى أربعة فوارس من ناحية، فحمل عليهم فهزمهم، ولحق واحدًا منهم فطعنه طعنة، فشلّه ما ألحقه بحصانه ليتمكن من الطعن، وعاد إلى الخيام".

(١) المصدر السابق : ص ٦٨.

وأسامة بعد هذا يتحدث عن العار الذي لحق بهؤلاء المهزومين وتوبيخ الناس لهم، لكنه بين أنهم لم يحبطوا، بل كان درسًا تعلموا منه، حتى ارتقوا إلى مصاف كبار الفرسان " فكان تلك الهزيمة منحتهم قلوبًا غير قلوبهم، وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها فاجتهدوا وقاتلوا، واشتهروا في الحرب وصاروا من الفرسان المعدودين بعد تلك الهزيمة.

ويضيف من باب الشماتة : " وأما بدرهوا فإنه سار بعد ذلك من أفامية في بعض شغله يريد أنطاكية، فخرج عليه الأسد من الغاب في طريقة فخطفه عن بغلته، ودخل به الغاب وأكله ولا رحمه الله.

على أنه في مقابل ذلك رصد أسامة آلاف الصور لفروسية المسلمين وبطولاتهم وإقدامهم على ملاقاة العدو غير آبهين، لإدراكهم أن الأعمار بيد الله، وأن الشجاعة لا تقصر منها، وأن الحذر لا يطيلها، وهو الذى رصد شهادته المؤثرة الشبيهة بشهادة خالد بن الوليد في هذا المجال التى كانت تدعو بعدم النوم على أعين الجبناء، فيقول أسامة[1]: " فلا يظنن ظانٌ أن الموت يقدمه ركوب الخطر، ولا يؤخره شدة الحذر ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيت من الأهوال، وتقحمت المخاوف والأخطار،

(١) انظر : أسامة بن منقذ، مصدر سابق ص ٣.

ولاقيت الفرسان ـ وقتلت الأسود، وضربت بالسيوف، وطعنت بالرماح ، وجرحت بالسهام، وأنا من الأجل في حصن حصين إلى أن بلغت تمام التسعين".

وصفحات كتاب (الاعتبار) مملوءة بضروب البطولة التى أبداها في مقاومة الصليبيين أسامة أو أبوه أو عمه أو كبار الفرسان والأمراء المشهورين، ولكنها لم تهمل بطولات الأفراد العاديين بل حتى الذين لا يتوقع منهم إحراز بطولات، وها هو أسامة يشير إلى رجل عجوز، كان قد نصح – بعد طول جهاد – بأن يلزم مسجده لكبر سنّه، ويجرى عليه راتب المقاتلين، والبركة في أولاده الشباب، وبعد أن استكان لهذا المطلب فترة قصيرة، جاء إلى الأمير قائلاً[1] : أيها الأمير، والله ما تطاوعنى نفسى على القعود في البيت، وقتلى على فرسى أشهى إلى من موتى على فراشى".

ولم تمض أيام قليلة حتى جاءت غارة صليبية من صاحب طرابلس، فاشترك هذا العجوزة واسمه (حمدان) فيها : " فوقف على رقع من الأرض مستقبل القبلة، فحمل عليه فارس من الإفرنج من غَرْبِيِّه، فصاح إليه بعض

(١) المصدر السابق : ص٥٣.

أصحابنا، فالتفت فرأى الفارس قاصده، فرد رأس فرسه شمالاً وأمسك رمحه بيده، وسدده إلى صدر الإفرنجي فطعنه طعنة نفذ الرمح منه ، فرجع الإفرنجي متعلقًا برقبة حصانه في آخر رمقة، فلما انقضى القتال، قال حمدان : أيها الأمير، لو أن (حمدان) في المسجد من كان طعن هذه الطعنة؟".

كما يشير في موضع آخر إلى امرأة عجوز يقال لها : (فنون)" تلثمت وأخذت سيفًا وخرجت إلى القتال، وما زالت كذلك حتى صعدنا وتكاثرنا عليهم[1]".

وليست طعنة العجوز يتيمة، فأسامة يسجل في يومياته طعنات الفرسان المتميزة، وها هو يشير إلى مملوك يسمى (ياقوت الطويل) تعرض لإحدى غارات الصليبيين فطعن فارسًا منهم إلى جانبه فارس آخر، وهما يتبعان أصحابنا فرمى الفارس والفرسين[2]. في طعنة واحدة.

ويشير إلى موقعه أخرى، استطاع فيها فارسان اثنان من فرسان المسلمين أن يهزما ثمانية من فرسان الصليبيين، وكان (أسامة) نفسه أحد هذين الفارسين، و (جمعة) الفارس الشهير ثانيهما، بل إن جمعة كان يريد أن

(١) المصدر السابق : ص ١١٥.

(٢) المصدر السابق : ٦٠.

يهزمهم وحده دون أسامة " فلما أشرقا على الحصن إذا من الإفرنج ثمانية من الفرسان وقوف على الطريق، وهي مشرفه على الميدان من ارتفاع لا ينزل منه إلا من تلك الطريق، فقال لي (جمعة) : قف حتى أريك ما أصنع فيهم، قلت : ما هذا إنصاف ، بل نحمل عليهم أنا وأنت ، قال : سر، فحملنا عليهم فهزمناهم ورجعنا ونحن نرى أننا فعلنا شيئا ما يقدر يفعله غيرنا، نحن اثنان قد هزمنا ثمانية من الإفرنج[1].

لكن أسامة بالإضافة إلى هذا يشير إلى التقنيات الحربّية التي يتبعها الصليبيون، وإلى الفخاخ التي ينصبونها في القتال والكمائن التي يحاولون الخداع من خلالها، ومنها الهجوم الخاطف الذي يتم شنه على باب حصن أو قلعة، فيتم قتل حارسها ثم الانسحاب السريع، حتى تخرج جماعة من الفرسان فيتمّ جرّها إلى كمين، وقد حدث هذا مرة على باب حصن (شيزر) وتنّبه المقاتلون إلى المكيدة، ومنها شدة الحرص، وأسامة يقول[2] : " والإفرنج لعنهم الله أكثر الناس احترازا في الحروب، ومنها استنفار العامة لسهولة إرباكهم والقضاء عليهم، وأسامة يحكي تجربة له في عسقلان في هذا المجال، حذر هو خلالها العامة من أن يندسوا في صفوف المقاتلين

---

(١) المصدر السابق : ص٥٤.

(٢) المصدر السابق : ص٢٣.

وقال : " يا أصحابنا ارجعوا إلى سوركم ودعونا وإياهم فإن نصرنا عليهم فأنتم تلحقوننا، وإن نصروا علينا كنتم أنتم سالمين عند سوركم، فامتنعوا عن الرجوع، فلما انفسحوا عن البلد تبعهم من الطفوليين أقوام ما عندهم منعة ولا غناء، فرجع الإفرنج فحملوا على أولئك فقتلوا منهم نفرًا، فانهزمت الرجالة الذين رددتهم فما رجعوا، ورموا تروسهم، ولقينا الإفرنج فرددناهم ومضوا عائدين إلى بلادهم"[1].

أما ما يتصل بنقض العهود والمعاهدات لدي الصليبيين فحكاياته كثيرة في الكتاب، ومن أبرزها ما حدث له ولأسرته من غدر (بأمان) الملك الصليبي الذى كان في أيديهم، فقد كان أسامة في الشام وأرسل يطلب أسرته من مصر، وكان الملك العادل قد حصل له ولأسرته على أمان كتابي من ملك الصليبيين في البر والبحر، وسافرت أسرته ومعها الكتاب، فلما حاذوا عكا تعرض لهم قراصنة البحر الصليبيون، ولم يعباوأ بكتاب الأمان الذي يحملونه وجردوهم من كل ما يملكون، يقول أسامة[2]: " وكنت إذ ذاك مع الملك العادل.. فهوّن عليّ سلامة أولادي وأولاد أخي وحرمنا، ذهاب ما ذهب من المال، إلا ما ذهب لي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت"

(١) المصدر السابق : ص٢٢.

(٢) المصدر السابق : ص٤٠.

وإذا كان أسامة قد اعترف لأعدائه بجوانب من الفروسية والشجاعة، فإنه كان يتعجب من اجتماع هذه الفروسية مع خصائل أخرى تعد نقصًا فاحشًا من وجهة نظره، وأبرزها انعدام الغيرة عندهم على نسائهم بما يتطلبه من نقصان النخوة التي هي ضروريّة للشجاعة ــ وبعد أن يورد كثيرًا من الأمثلة والطرائف في مجتمع الصليبيين في المشرق وكلها تؤكد من وجهة نظره عدم غيرتهم على نسائهم ، يقول أسامة(١). فانظر إلى هذا الاختلاف العظيم : ما فيهم غيرة ولانخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة.

وإذا كانت الفروسية عند المسلمين تحيط بها ألوان من المبارزات والتدريبات النبيلة الراقية التي تكاد طقوسها تشبه الطقوس الدينية، كما رأينا في نص ابن قيم الجوزية الذي جسد آداب المبارزة والرماية المتوارثة عند المسلمين، فإن أسامة بن منقذ يسجل على معاصريه من الفرنجة في المشرق، ألوانًا من الوحشيّة القاسية في مبارزاتهم، وهو يصف مبارزة شهدها في مدينة نابلس بين شيخ اتهم بأنه دلّ اللصوص على ضيعة جاره، فقال للملك: " أنصفني أنا أبارز الذي قال عني ذلك" وبين شاب حداد يعمل في هذه

(١) المصدر السابق : ص١٢٤.

الضيعة اختاره ليبارزه، ويصف أسامة المبارزة الوحشية قائلا[1]. " جاء البسكندر فأعطي كل واحد منهما العصا والترس وجعل الناس حولهم حلقة فكان الشيخ يلز بذلك الحداد، وهو يتأخر حتى يلجئه إلى الحلقة، ثم يعود إلى الوسط، وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم/ فطال الأمر بينهما، والبسكندر يستعجلهما، ونفع الحداد إدمانه بضرب المطرقة، وأعيا ذلك الشيخ، فضربه الحداد فوقع ووقعت عصاه تحت ظهره، فبرك عليه الحداد يدخل أصابعه في عينيه، ولا يتمكن من كثرة الدم في عينيه، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله، فطرحوا في رقبته حبلا وجروه، وجاء صاحب الحداد فأركبه خلفه وانصرف، وهذا من جملة فقههم وحكمهم لعنهم الله.

وهذه الجفوة الوحشية على النقيض من متطلبات الفروسية كما يفهمها فارس كأسامة بن منقذ، وكما يعتادها مجتمع الشرف الإسلامي، ولهذا يلاحظ أسامة أن درجة الجفوة والخشونة عندهم تقل إذا طالت معاشرتهم للمسلمين، ومن هنا فإن المهاجرين الجدد من بلاد الفرنجة تتبدى فيهم الخشونة على نحو أكثر وضوحًا من الذين طال مقامهم في المشرق، وعلى حد تعبير أسامة[2]. " فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية، أجفى من الذين عاشروا المسلمين.

---

(١) المصدر السابق : ص١٢٦.

(٢) المصدر السابق : ص ١٢٣.

إن أسامة بن منقذ لم يرسم صورة الفروسية في نثره فحسب، وإنما قدم منها نماذج رائعة في شعره بالإضافة إلى ما قدمه هو نفسه من تجسيد عملي لمفهوم الفروسية في مواقعه ومواقفه بفضل ما أوتي من مواهب في مجالات الشعر والنثر والفروسية.

وفي ديوان أسامة كثير من القصائد والمقطوعات التي تستلهم مواقف البطولة في اللقاءات الكثيرة التي حدثت بين المسلمين والفرنجة ، وكان أسامة أحد أبطالها وشهودها ، وكانت غايتها المعلنة - كما يقول أسامة - استرجاع بيت المقدس:

ونرتجع القدس المطهر منهم	ويتلى بإذن الله في الصخرة الذكر

وكانت خطواتها يتجاوز على طريقها الشجاعة والعدل وإعادة الأمن والطمأنينة للناس ، ورد ما سلب منهم:

بنا استرجع الله البلاد وأمّن الـ	عباد فلا خوفٌ عليهم ولا قهر
وكم مثل هذا من قلاع ومن قرى	ومزدرعات لا يحيط بها الحصرُ
فلما استعدناها من الكفر عَنْوَة	ولم يبق في أقطارها لهم أثر
رددنا على أهل الشام رباعهم	وأملاكهم فانزاح عنهم بها الفقر
وجاءتهم من بعد يأس وفاقة	وقد مسهم من فقدها البؤس والضر

ومـر عليهـا الـدهر والكفـر حـاكم عليهـا وعُمْـرٌ مَـرَّ مـن بعـده عمـر

فنـالهمُ مـن عَوْدهـا الخـير والغنـى كما نالنا مـن ردهـا الأجـر والشـكر

ونحن وضعنا المكس عن كـل بلـدة فأصـبح مسرورا بمتجـره السـفر

وأصبحت الآفـاق مـن عـدلنا حمى فكـان قطاهـا لا يروعهـا صـقر[1]

أما الوقائع التى أدت إلى هذه الانتصارات فهي كثيرة، وأسماء قادتها من االفرنجة مبثوثة في قصائد أسامة يطوع نطقها لمعايير الوزن العربي من قبل :

وفي سجننا "ابن القُنْش" خير ملوكهم وإن لم يكـن خـيرٌ لـديهم ولا بَـرُّ

أو قوله :

ونحن أسرنا "الجوسلين" ولم يكـن ليخشـى مـن الأيـام نائبـة تعـرو

أو قوله :

ونحن كسرنا "البغدوين" وما لمن كسرنـاه إبـلال يرجـى ولا جـبر

أو قوله :

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق : دكتور أحمد بدوى، وحامد عبد المجيد ص ١٥٤، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٣.

قتلنا "البرنس" حين سار بجهله تحف به الفرسان والعسكر المجر

ومع أن القتال في هذه المواقع كلها يتم تصويره من خلال ضراوة مفردات الحرب في الشعر العربي، وهى غنية في هذا المجال بصور الغبار الذي يحجب الشمس، والدماء التى تخوض فيها الخيول، والنسور التى تشبع الجيش المحارب لتأكل جثث ضحاياه، فإن الشطر الآخر من قانون الفروسية الذي يخفف من قسوتها الوحشية يبرز كذلك مجاورًا للصورة الأولى، بل ممتزجًا بها، على النحو الذى يعبر عنه أسامة في مثل هذا البيت:

فبأس يذوب الصَّخر من حَرِّ ناره ولُطفٌ له بالماء يَنْبَجِسُ الصَّخرُ

أو مثل قوله في مخاطبته الملك الصالح أحد أبطال الحروب الصليبية(١).

فسيفك للخصم المعاند قاصمٌ وعدلك للشكوى وللجور شاكم

خلطت السطا بالعدل حتَّى تَآلَّفَتْ أسودُ الشرَّى والطفلات الروائم

ولم يتوقف تجلى الفروسية عند المعارك الأرضية وما تثيره ممن غبار وكرّ وفرّ وطعن بالرماح وضرب بالسيوف، وإنما امتدت إلى البحر تصديًا لوسائل

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٧٥.

القادمين من وراء البحار لغزو الشرق تحت ستار الصليب، وها هو أسامة يقدم صورة في عصره للفروسية البحرية[1].

غـزوتهم في البحـر حتـى كـأنها الأ | ســاطيلُ فيــه موجُــهُ المــتلاطمُ
بفرسـان بحـرٍ فـوق دُهْـم كـأنهم | عــلى المــاء طــير مــا لهــن قــوادمُ
يُصرفهــا فرســانها بأعنّــة | جرت حيث لم تُوصَلْ بهن الشكائمُ
إذا دفعوهـا، قلـت فرسـان غـارة | سرَوْا بجيــاد مــا لهــن قــوائم
دمــاؤهم في البحـر حمـر سـوائحٌ | وهــامهم في الــبر ســحمٌ جــوائم
فلم يَخْفَ في فج من الأرض هارب | ولم ينـج مـن لـج مـن المـاء عـائم
وعـاد الأسـارى مـردفين وسـفنهم | تقـاد، كـما قـاد المهـاري الخـزائم

إن صورة الآخر الإفرنجي – كما قدمها الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية ممثلا فيما كتبه أسامة بن منقذ نثرًا وشعرًا – تعتمد على محاولة تعرف خصائص ذلك الآخر من خلال الاقتراب منه، ومعرفة إيجابياته وسلبياته، والاعتراف بشجاعته بهذه الإيجابيات حين توجد، والتركيز على السلبيات للنفاذ منها إليه، وتشكيل مواقع للثقة بالنفس من خلالها، وتشجيع الذات

(١) المصدر السابق : ص ٢٧٦.

على توسيع الثغرة حين توجد، من خلال ضرب الأمثلة للبطولات، ولابد أن يلاحظ أن طبيعة اللغة النثرية في رصد ملامح هذه الصورة، تختلف بالضرورة عن طبيعة اللغة الشعرية في رصد الملامح نفسها، حيث يتسع مدى البلاغة والخيال في الجانب الشعري، ولكن الرصد يظل في مجمله رصدًا واقعيًا أدبيًا لم يدخل دائرة الرصد الأسطوري الذي دخلته الآداب الأوربية، وهى ترسم ملامح الآخر العربي في الفترة نفسها، وخاصة شخصية صلاح الدين، وان كان الخيال الروائى العربى قد استطاع أن يكمل رسم صورة مفصلة لجموع الفرنجة في بلادهم من خلال حكايات ألف ليلة كما سنرى.

* * *

صورة الفرنجة في ألف ليلة وليلة

إذا كانت كتابات أسامة بن منقذ، قد شكلت نموذجًا من الكتابة الأدبية التي تجتمع فيها، انطباعات شاهد العصر، واعترافات كاتب السيرة الذاتية، وخلاصة تجارب الفارس المقاتل والأمير المفاوض لجموع الفرنجة، إلى جانب حماسة الشاعر، الذي اقترب عمره من تمام القرن (٤٨٨ – ٥٨٤ هـ) – رصده كله للحوار مع الفرنجة بمختلف وسائل الحوار الهادئة الساخنة، وإذا كانت كتابات أسامة تقدم – في نهاية المطاف – شهادة كاتب معروف، نستطيع تحديد زمانه ومكانه ونناقشه في آرائه، فإن لدينا ثروة أخرى من كتابات الأدب الشعبي التي ترصد صورة الفرنجة لدى عامة الناس، وترسم قصصًا لطرائق التعامل معهم في أزمنة الحرب والسلم والكراهية والحب، والتعامل معهم داخل الديار أو فيما وراء البحار، على مستوى القادة المشهورين والفرسان المعروفين أو عامة الناس المغمورين، وتهتم بعالم النساء عندهم اهتمامها بعالم الرجال، وتخترق حواجز هذه العوالم المجهولة متقلبة بين مشاعر الانبهار ومشاعر الإنكار، وناسجة من خيالها تفسيرًا مجسّدًا لما وراء أحداث الانتصار أو الانكسار، ومخططة لمعارك وقعت

أو كان ينبغي أن تقع، ومكملة لخطط يتدخل فيها الخيال الشعبي؛ ليكمل القصور الذي وقع فيه قادة العرب والمسلمين، وهم يواجهون الفرنجة ولتغمز هؤلاء القادة في سلوكياتهم ونقائصهم وأخلاقياتهم وملذاتهم التي وقعوا فرائس لها، فأضاعوا كثيرًا من فرص النصر، وهم يواجهون الفرنجة، ولكنها في الوقت ذاته ترسم صور التمجّيد لأبطال العرب والمسلمين الذين أحسنوا البلاء في مواجهة الفرنجة .

وإذا كان جانب من صورة الفرنجة يمكن أن يرسم من خلال أدب السيرة الشعبية الملحمية مثل: سيرة الظاهر بيبرس، وسيرة الأميرة ذات الهمة، فإن القصص الشعبية المتنوعة في عمل أدبي كبير مثل "ألف ليلة وليلة" يمكن أن تساعد على رسم جوانب من هذه الصورة أكثر تنوعًا وأكثر امتدادًا في الزمان والمكان، دون أن تنقص بأيّ حال من الأحوال من عطاء الصورة التي ترسمها هذه الملامح الشعبية المطولة في هذا الصدد، والتي قد نعود إلى رصد معطياتها في بحث تال .

ولكننا نود هنا أن نرصد بعض ملامح صورة الفرنجة في حكايات "ألف ليلة وليلة " مستفيدين من رحابة المساحة الزمانية والمكانية لنصوصها، وهي رحابة ربما لم تتح بنفس القدر لأيّ نصٍ آخرَ في الأدب العربي . ذلك أن

طابع "المؤلف المجهول" لحكايات ألف ليلة وليلة قد ترتب عليه طابع النص المفتوح الذي ظل متداولاً بين أيدي القصاصين والوراقين يضيف إليه كل جيل ما لديه، حتى تمَّ إغلاق النص المكتوب في الربع الأول من القرن السادس عشر بعد دخول الأتراك العثمانيين إلى مصر، ومعنى ذلك أن صورة مثل صورة الفرنجة التي ترد في حكاياها المتناثرة عبر "ألف ليلة وليلة " ظلّت مفتوحة نحو أربعة قرون أو تزيد، حتى استقرت في النص الذي بين أيدينا، والحكايات التي تتعرض لصورة الفرنجة في "ألف ليلة وليلة" متعددة، بعضها يتعرض للفرنجة، تعرضًا جزئيًّا، على حين يدور صلب الحكاية خارج نطاق دائرة الفرنجة، وبعضها الآخر، يتخذ العلاقات بين المسلمين والفرنجة محوره الرئيسيّ، وتسيطر على تفاصيله الفرعية.

ويلاحظ - بصفة عامة- أنَّ الحكايات المتصلة بالفرنجة ينتمي معظمها إلى طائفة "الليالي المصرية" في ألف ليلة وليلة، وينطلق كثير من حكاياتها من المدن الساحلية مثل الإسكندرية؛ لكي تصب في مدن ساحلية مقابلة مثل جنوه والبندقية أو في واحدة من جزر البحر المتوسط أو مدنه التي توصف دون أن تسمى.

ومن الحكايات التي تتعرض جزئيًّا لصورة الفرنجة، "حكاية علاء الدين أبي الشامات" . وهو ابن شمس الدين شاه بندر تجار مصر في زمانه،

وقد اتسعت تجارته، واتصل بخليفة بغداد، وكان لـه ابـن شـهير مـن رجـال الخليفة يسمَّى أحمد الدنف،وكان لعـلاء الـدين محـل تجـارة في الإسـكندرية، وكان قد عرض فيـه يومًـا خـرزة كبـيرة بهـا خمسـة وجـوه، وعليهـا كتابـات وطلاسم، فرآها قنصل من الفرنجة، كان يمرُّ في الطريق، فعرض عـلى عـلاء الدين أبي الشامات أن يبيعها له بثمانين ألف دينار، فوافق ودعـاه إلى أن يحضر معه إلى مركبه الراسية في الميناء؛ ليعطيه هذا المبلغ الكبير الـذي لا يسـتطيع أن يسير به في شوارع الإسكندرية، وعندما نزل معه مركبه وأعطاه ثمن الخـرزة، دعاه إلى شراب، ووضع له فيه البنج، وأمر بحـل القـلاع وأبحـرت السـفينة ناحية مدينة جنوه. ووسيلة التخدير عن طريـق البـنج واحـدة مـن الوسـائل الشائعة التي سوف نلتقي بها كثيرًا في الصراع بين المسلمين والفرنجة، ونجـد في مقابلها وسائل للإفاقة "ضد البنج" تشمم للضـحيّة عنـدما يـراد إيقاظـه، وفي هذا المشهد من حكاية علاء الدين أبي الشـامات، نلتقـي بوسـيلة أخـرى أكثر عنفًـا في الصراع، وهـي وسـيلة "القرصـنة البحريّـة، وهـي تنسـب إلى الفرنجة الذين يسـتولون عـلى مراكـب المسـلمين المسـافرة في البحـر ، يقـول الراوي "فبينما هم في الظلام، وإذا بمركب فيـه أربعـون مـن تجـار المسـلمين، فطلع القبطان بمركبـه علـيهم، ووضـع الكلاليـب في مـراكبهم، ونـزل هـو

ورجاله فنهبوها، وأخذها وسار بها إلى مدينة جنوه، فأقبل القبطان الذي معه علاء الدين إلى باب قصر قيطون، وإذا بصبيّة نازلة، وهي ضاربة لثاما، فقالت له : "هل جئت بالخرزة وصاحبها" ؟ فقال لها: "جئت بهما"، أما مصير الذين يقعون في يد قراصنة الإفرنج من المسلمين، فهو مصير يتكرر وصفه في كثير من مشاهد الصراع مع الفرنجة في ألف ليلة، وهو إطاحة الرأس بالسيف لكل الأسرى واحدًا بعد الآخر بأمر الملك وعلى مرأى منه، وأحيانا يفلت الأسير الأخير مصادفة حين تصل عجوز من الدير، وهو على وشك تنفيذ الحكم به، فتُذكّر الملك بأنه كان قد وعدها بأن يعطيها بعض أسرى المسلمين؛ لكي يعملوا خدمًا في الدير، فيوقف إجراءات القتل في الأسير الأخير، ويمنحها إياه، وغالبًا ما يكون هذا الأسير هو بطل القصة الذي يريد الراوي أن يمنحه فرصة لمواصلة مغامراته، فقد حدث هذا المشهد هنا مع علاء الدين أبي الشامات، وحدث مشهد مماثل في حكاية "علي نور الدين ومريم الزناريّة، وفي كلتا القصتين كانت هناك فتاة من بنات الفرنج، وهي غالبًا بنت الملك تنتظر البطل المسلم الذي وقعت في هواه، وقد تكون هي التي دبّرت حيلة نجاته، ونكتشف خلال الحوار أنها كانت قد أسلمت وأخفت إسلامها، كما تقول الأميرة مريم هنا لعلاء الدين أبي الشامات:

"حاشا لله أن أكون كافرة، بل أنا مسلمة ولي ثمانية عشر عاما وأنا متمسكة بدين الإسلام ... وحين بلغت من العمر أربعة عشر عاما، قرأت الإنجيل وغيره من الكتب فرأيت اسم محمد في الأربعة كتب، التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فآمنت بمحمد، وأسلمت وتحققت بعقلي أنه لا يعبد بحق إلا الله تعالى، وأن رب الأنام لا يرضى إلا بدين الإسلام" .

هذا نمط من أنماط ورود صورة الفرنجة ورودا عرضيًّا في إحدى حكايات ألف ليلة وليلة، وهو نمط ترد فيه نواة الخصائص التي ترد في مواضع أخرى مشكلة صورة الفرنجة العامة في خيال الراوي المسلم، وقد رصدنا منها هنا مشهد القرصنة البحرية، وعشق المرأة الإفرنجية للبطل المسلم، ونستطيع أن نرصد هنا ملمحًا آخر سوف تؤكد عليه الحكايات التالية وهو أن هذه المرآة العاشقة غالبًا ما تتمتع إلى جانب الجمال الخارق بالشجاعة الخارقة، التي تجعل منها فارسًا ملثَّمًا، يجيد كلَّ فنون القتال، ويطيح برؤوس عشرات الأبطال من فرسان الفرنجة الآخرين، الذين يحاولون التعرض للبطل المسلم، ومن اللافت للنظر أن نجد شجاعة البطل المسلم - في بعض الأحيان- أقل بكثير من مستوى شجاعة صاحبته الإفرنجية، بل إنه لا يخجل من التصريح بهذا، فها هي الأميرة مريم عندما هربت مع علاء

الدين طاردتهم فرقة من فرسان الفرنجة، "فلمّا رأت الغبار قد سدَّ الأقطار، وبعد أن علا وطار انكشف، فظهر من تحته أخوها والعسكر وهم ينادون: إلى أن تقصدون؟ فقالت الصبيّة لعلاء الدين : كيف ثباتك في الحروب والنزال ؟ فقال لها: مثل الوتد في النخال، فإني ما أعرف الحرب والكفاح ولا السيوف والرماح "

وذلك ملمح ذو دلالة من جانبين: تعوّد المرأة الإفرنجية على الحروب في معظم الأحايين وعدم تعوّد الفتيان المسلمين عليها في كثير منها كما نرى في حكايات تالية.

ولسوف نرى الصورة أكثر وضوحًا وتفصيلًا في الحكايات التي تحتل فيها صورة الفرنجة جوهر الحكاية الرئيسيّ، وليس مجرد مشهد عرضيّ من مشاهدها، وسنختار حكايتين تنتميان إلى هذا النمط من حكايات ألف ليلة، ويمكن بدورهما أن يمثّل كلٌّ منهما نمطًا فرعيًّا مستقلًّا، يجسّد الأول منهما نمط المواجهة الجماعية ذات الطابع الحربي، ويمثّل الثاني نمط المواجهة الفردية ذات الطابع العاطفيّ.



أولا : صورة الفرنجة في المواجهة الجماعية ذات الطابع الحربي

وتمثّل هذه المواجهة حكاية الملك عمر النعمان، وولديه شركان وضوء المكان.

وتدور الحكاية في إطار زمانيّ يحرص الراوي على أن يعطيه مسحة من العراقة والقدم حين يستهل الحكاية بقول شهرزاد : " بلغني أيها الملك السعيد أنه كان بمدينة دمشق قبل خلافة عبد الملك بن مروان، ملك يقال له عمر النعمان، وكان من الجبابرة الكبار، قهر الملوك الأكاسرة والقياصرة، وكان لا يصطلي له بنار، ولا يجاريه أحد في مضمار، وإذا غضب يخرج من منخريه لهيب النار " والراوي بهذا أعطى مسحة القدم والأسطورة على المكان والزمان وعلى الشخصية ذاتها، لكنه سارع كذلك بتقديم ملمح رئيسي من ملامح شخصية البطل يتمثّل في علاقته بعالم المرأة، وهي علاقة مثّلت المدخل الرئيسي لكل المشكلات التي سيمرّ بها أبطال الحكاية، وشكّلت أيضًا إدانة مضمرة من راوي الحكاية لسلوك "البطل" العربي في هذه الناحية، مقارنًا بسلوك نظرائه من أبطال الفرنجة، فالملك النعمان له أربع نساء

بالكتاب والسنّة لم يرزق منهن إلا بولده شركان ... والباقيات عواقر .. ومع ذلك كان له ثلاثمائة وستون سرية على عدد أيام السنة القبطية، وتلك السراري من سائر الأجناس وقد بنى اثني عشر قصرًا على عدد شهور السنة، وجعل في كل قصر ثلاثين مقصورة، وأسكن تلك الجواري في تلك المقاصير، وفرض لكل سرية منها ليلة يبيتها عندها، وما يأتيها إلا بعد سنة كاملة، وهذا المشهد الذي يحرص على ذكر تفاصيله، وربطه بنظام الفلك الدائر في عدد أيام السنة، يقدم إدانة أوليّة للشراهة الجنسيّة التي سوف تتولد عنها المشكلات الرئيسة في المواجهة مع الفرنجة، فمن بين السرايا ساكنات المقاصير جارية روميّة تسمّى صفيّة، انتقاها الملك من بين السرايا التي تقدّم إليه من جيرانه في صفقات الحروب أو المهادنة، وكانت صفيّة تلك بنت أحد ملوك الفرنجة، وهو الملك أفريدون صاحب البلاد اليونانية للمملكة القسطنطينية، وقد حملت من الملك النعمان وأنجبت له توأمًا ذكرا وأنثى هما "ضوء المكان" و"نزهة المكان" إلى جانب ولده "شركان"، وسوف تكون هذه الأميرة المختطفة المحور الخفي أو الظاهر لعملية الصراعات والحروب التي يروح ضحيتها آلاف الأنفس وتلال الأموال من الفريقين.

ومنذ بداية مشاهد الحكاية يستقبل بلاط الملك النعمان وفد صداقة – في

الظاهر – من الملك أفريدون يطلب فيه معونة النعمان في الحرب التي تدور بينه وبني أحد ملوك الفرنجة الآخرين في قيسارية؛ ليخلص من بين أيديه كنزًا ثمينًا عليه نقوش بالخط اليونانيّ، وبه ثلاث خرزات واقيات من لبسها لا يصاب بأذى، وهو لا يليق إلا بالملك النعمان، وتنطلي الحيلة على الملك النعمان ظنًّا بأن هذه فرصة لإثبات هيبته، وكسر شوكة أعدائه، فيرسل جيشًا قويًّا على رأسه وزيره دندان، وابنه شركان إلى بلاد قيسارية، وحين يصل الجيش بعد سفر طويل يضرب خيامه للراحة في واد فسيح، ويودّ الأمير شركان أن يتجول وحيدًا؛ ليكتشف خصائص المكان فيبتعد به حصانه، ويدخل في غابة واسعة، ويقع فريسة الإجهاد وعدم النوم فيغفوا قليلاً، ثم يصحو ليجد نفسه فجأة على مشارف معسكر للنساء من بنات الفرنجة، لكي يقف الراوي طويلاً أمام صورة المرأة الفرنجية التي تجمع بين شدة الجمال وقوة البأس، وتمثّل عنصرًا رئيسيًّا في إدارة الصراع بين المسلمين والفرنجة، وهو عنصر لا يوجد نظير له في كفة الجانب الإسلامي " ونظر شركان إلى ذلك المكان فرأى فيه ديرًا ومن داخل الدير قلعة شاهقة في الهواء في ضوء القمر وفي وسطها نهر يجري الماء منه إلى تلك الرياض، وهناك امرأة بين يديها عشر جوارٍ كأنهن الأقمار، وعليهن من أنواع الحلي والحلل ما يدهش الأنظار، ووجد بينهن جارية كأنها البدر عند تمامه، وسمعها وهي تقول للجواري تقدموا (...)

حتى أصارعكم (...) قبل أن يغيب القمر ويأتي الصباح، فصارت كل واحدة منهن تتقدم إلها فتصرعها في الحال، وتكتفها بزنارها فلم تزل تصارعهم وتصرعهن حتى صرعت الجميع، ثم التفتت إليها جارية عجوز كانت بين يديها، فقالت لها: وهي كالمغضبة عليها: أتفرحين بصراعك للجواري فها أنا عجوز، وقد صرعتهن أربعين مرة، فكيف تعجبين بنفسك ؟ ولكن إن كان لك قوة على مصارعتي فصارعيني فإن أردت ذلك وقمت على مصارعتي، أقوم لك واجعل رأسك بين رجليك فتبسمت الجارية ظاهرًا وقد امتلأت غيظًا منها باطنًا" .

إن هذا المشهد يقدم مفتاحًا هامًّا من مفاتيح رسم صورة الفرنجة في عيني الراوي، واختلاف صورة عالم النساء عند الفرنجة عن نظيره في الجانب المقابل عند المسلمين، والطرفان المتقابلان داخل معسكر النساء في دير الفرنجة يمثّلان أهمية المرأة في إدارة الصراع في كل مراحل عمرها، فالفتاة الحسناء التي تصرع الفتيات اللاتي تدربهن هي الأميرة ابريزة بنت الملك حردوب ملك الروم، والعجوز التي تتحداها في نهاية المشهد تسمّى "أم الدواهي" وهي أمُّ الملك، وقائدة ما يمكن أن نسميه بفريق إدارة الصراع بين معسكر المسلمين ومعسكر الفرنجة، إدارة تستغل فيها كل عناصر التجسس والملاينة، ومعرفة نقاط ضعف العدو، وسرعة التغلب، وشدة النفاذ إلى قلب

مراكز صنع القرار عند العدو، والتدخل المباشر في إملاء القرار، ورسم الخطط مع إيهام العدو، بأن ذلك يتم لصالحه، وبأن الذي يعطيه المشورة إنما هو صديق ناصح، لا عدو متخفٍ (وهي كلها وسائل ما زلنا نعاني منها في التعامل مع عدونا دون أن ندري امتداد جذورها في الصراع مع شخصية الفرنجة في تراثنا الأدبي .)

أما الفتاة الحسناء وهي ابنة الملك فسوف يشف الحوار معها من وجهة نظر الراوي عن معرفة العدو التامّة بأحوالنا الداخليّة، وعن تحليه في مواجهتنا بألوان فائقة من الكمال الحسيّ والمعنويّ، وعن تمتعه بكثير من صفات الشجاعة، والوضوح التي نعاني من نقصها.

لقد رأى شركان هذا المشهد. " فركب جواده ولكزه ففر به كالسهم إذا فر من القوس وبيده حسامه مجرد من غَلافه، ثم صاح الله أكبر،فلما رأته الجارية نهضت قائمة وقالت: أذهب إلى أصحابك قبل الصباح لئلا يأتيك البطارقة. فيأخذونك على أسنة الرماح، وأنت ما فيك قوة لدفع النسوان، فكيف تدافع الرجال الفرسان".

لكن شركان الذى لجأ إلى المالاينة والمطالبة بحق الضيف في الاستقبال والإيواء يجد ترحيبا من الفتاة ووعدا بالضيافة، ويدفعه ذلك إلى أن يعرض

عليها. أن تسافر معه إلى بلاد الإسلام لترى الأبطال هناك، وتعرف مكانة شركان،ولكن إجابتها تحمل مغزى، يود الرواى من خلاله أن يرسم جانبا من صورة المسلمين فى عيون الفرنجة، فهى تقول له : "وحق المسيح لقد كنت عندى ذا عقل ورأى، ولكنى اطلعت الآن على ما فى قلبك من الفساد... كيف أصنع هذا، وأنا أعلم متى حصلت عند ملككم عمر النعمان، أن لا أخلص منه. وقد بنى له اثنى عشر قصرا بها جوار على عدد أيام السنة، لأن اعتقادكم أنه يحل لكم التمتع بمثلى مما ملكت أيمانكم، فكيف تكلمنى بهذا الكلام" ؟.

وكما تربط القصة بين المرأة والشجاعة، وسعة الإدراك، فإنها تجعل كذلك صفة الشجاعة والفروسية من نصيب "البطارقة" فحيث يظهر البطارقة. تظهر معهم سيوفهم وقدرتهم الخارقة، ويظهرون مكلفين بالمهام الخاصة، كما حدث في هذا المشهد عندما اصطحبت ابريزة شركان إلى قصرها ضيفا لها – وهو فارس متنكر – فوصل خبر وصوله، عن طريق العجوز ذات الدواهى إلى الملك حردوب، الذى أرسل على الفور. فرقة من البطارقة المسلحين اقتحموا جناح الأميرة ابريزة ليقبضوا على شركان عدوهم اللدود، وهنا يشف الرواى عن صفة أخرى ينسبها للفرنجة، هى الوفاء وحماية

الضيف فالأميرة تهب غاضبة في وجه البطارقة ، لأنهم اقتحموا جناحها دون أذن، ومع ذلك فهى تنفى علمها بأن يكون ضيفها، هو أمير الجيش المعادى (مع أنها تعلم ذلك) لكن تضيف فى حديثها إلى البطارقة :"وحق المسيح إن الذى عندى... رجل أتى إلينا وقدم علينا، فطلب الضيافة فأضفناه، فإن تحققا أنه شركان بعينه، وثبت عندنا، أنه هو من غير شك، فلا يليق بمروءتى أن أمكنكم منه، لأنه دخل تحت عهدى وذمتى، فلا تخونونى في ضيفى، ولا تفضحونى بين الأنام"، وسوف يتضح من خلال تطور الأحداث في هذه الحكاية الطويلة، مدي المفارقة، بين صفة الوفاء للضيف، والمحافظة على حياته، حتى وأن اضطرت الأميرة الإفرنجية للدفاع عنه بالسيف، وبين ما حدث لهذه الأميرة، حين لحقت بالأمير شركان في ديار الإسلام رغم مخاوفها التى كانت قد عبرت عنها من الشره الجنسي، الذي يتسم به والده الملك عمر النعمان، فقد تحققت مخاوفها، وظل الرجل يتودد إليها زمنا طويلا دون جدوى- رغم نسائه الأربع وجواريه الثلاثمائة والستين – حتى نصحه وزيره، بأن يدس لها قرص البنج في الشراب خلال استضافتها له، وقد فعل فاعتدى عليها،وحملت منه سفاحا وحاولت الفرار إلى ديار أهلها، وهى مثقلة بحملها، فى حماية عبد من عبيد النعمان، فحاول هو بدوره أن يعتدى عليها

وهى في لحظات المخاض،ولما عنَّفته، استل سيفه وقتلها،وهكذا جسد الرواى صورتين متقابلتين،لما يجرى في معسكر الفرنجة، من فروسية وشجاعة ووفاء بالعهد وحماية للضيف من قبل النساء وما يجرى فى معسكر بلاد الإسلام،من أمير مُمْتَحَنٍ بحب الجوارى، على حد تعبير الراوى، يلجأ إلى الغدر والاعتداء، وينتهى الأمر بسفك الدماء، وهذا ما دفع الملك حردوب ملك الفرنجة لأن يقول لأمه ذات الدواهى وهو يبكى: " أهكذا يفعل المسلمون ببنتى؟ الملك النعمان. أزال بكارتها قهرا، وبعد ذلك قتلها، عبد أسود من عبيده، فوحق المسيح لابد من أخذ ثأر ابنتى، وكشف العار عن عرضى، وإلا قتلت نفسى بيدى".

ويزيد من تجسيد قصر نظر الملك عمر النعمان، ما يمهد به الراوى من تصوير الخدمة الجليلة التى أدتها ابربزة لجيوش المسلمين التى تجمعت بقيادة شركان ودندان في بلاها،لمحاربة أبيها والحصول على الكنز والخرزات، بتحريض من الملك أفريدون، ملك اليونان، لقد أوضحت لهم أن في الأمر خدعة كبرى من أفريدون الذى أراد أن ينتقم من جيوش المسلمين، يجرها إلى فخ ينصب لها بين جيوشه وجيوش حلفائه في قيسارية، انتقاما لابنته الأميرة صفية، التى أضافها عمر النعمان إلى جواريه، ونصحت الجيش بسرعة العودة

قبل الوقوع في الفخ، ووعدتهم باللحاق بهم سريعا فى بلادهم ومعها الكنز الذى يبحثون عنه، والخرزات الثلاث التى يطلبونها، ونجحت فكرتها بالفعل في إنقاذ الجيوش وحققت وعدها فى اللحاق ومعها الكنز والخرزات،فكان جزاؤها ما كان.

على أن إغلاق الستار على قصة الإفرنجية الشابة، ودورها الإيجابي الذى حاولت أن تقدم من خلاله عناصر الإيجاب ممثلا في الجمال الحسى والمعنوى، سوف يفتح الباب على الوجه الأخر للمرأة الإفرنجية، وهى تحمل عناصر السلب المقابلة؛ القبح مقابل الجمال، والشر في مقابل الخير، والشيخوخة فى مقابل الصبا، والقدرة على الإضرار بالعدو من خلال التلون والتخفى، فى مقابل إظهار حسن النوايا، وتتحقق هذه العناصر كلها من خلال شخصيته ذات الدواهى" وهى أم الملك، والتى يجسد الراوى، من خلال شخصيتها،مفاهيم التجسس ومعرفة نقاط ضعف العدو، والتخطيط الهادئ البعيد المدى من أجل تحقيق الهدف والإضرار بالخصم وهو ما عبرت عنه "ذات الدواهى" حين قالت لابنها الباكي على الغدر بابنته:" لا تحزن من عدم أخذ ثأرها، فوحق المسيح، لا أرجع عن الملك عمر النعمان حتى أقتله وأقتل أولاده ولأعملن معه عملا تعجز عنه الدهاة والأبطال، ويتحدث

عنه المتحدثون فى جميع الأقطار، ولكن ينبغى لك أن تمتثل أمرى في كل ما أقوله، وأنت تبلغ ما تريد، فقال وحق المسيح لا أخالفك أبدا فيما تقولينه".

وكانت خطة ذات الدواهى قائمة، على إعداد مجموعة من الفتيات الجميلات إعدادا رفيعا في الثقافة العربية والإسلامية وفنون المنادمة، مهما استغرق ذلك من الوقت، وأن يكون الإعداد على يد مجموعة من أمهر العلماء والحكماء، يؤتى بهم من أرجاء العالم الإسلامي ويجزل لهم العطاء،ويمضى الإعداد على مهل، والرواى يجرنا إلى فصول متداخلة أخرى من فصول الحكاية تمضى خلالها السنوات الطوال، حتى تظهر العجوز في بلاط الملك النعمان ومعها الجواري، كما يحكى الوزير دندان حين يقول:" فبينما نحن بين يديه يوما من الأيام، وإذا بعجوز عليها آثار العبادة، قد وردت علينا، معها خمس جواري نهد أبكار، كأنهن الأقمار وحوين من الحسن والجمال ما يعجز عن وصفه اللسان، ومع كمال حسنهن يقرأن القرآن وأخبار المتقدمين فاستأذنت تلك العجوز في الدخول عليه، فقربها إليه،لما رأي فيها من آثار الزهد والعبادة".. وقالت له.. أعلم أيها الملك أن معى خمسة جوار ما ملك أحد من الملوك مثلهن.. وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان .. فنظر الملك إلى

الجواري فسرته رؤيتهن، وقال لهن: كل واحدة منكن تسمعني شيئا مما تعرفه من أخبار الماضي والأمم السابقين". ويستعرض الراوى على ألسنة الجوارى، كثيرا من روائع الأشعار والحكم والأخبار والمعلومات الدقيقة في فروع المعارف الإسلامية وهى تجرى على ألسنة الجوارى الحسان، وازداد الملك اعجابًا بحسن الجوارى وغزارة علمهن وبورع العجوز وتقواها، بعد أن وجدها أياما طويلة في القصر لا تكف عن الصلاة والقيام في ليلها والصيام في نهارها، وقال للوزير،أن هذه العجوز من الصالحات،وقد عظمت في قلبى مهابتها، وعندما سألها عن ثمن الجوارى، قالت له: لا أطلب فيهن ذهبا ولا فضة، ولكن ثمنهن، شهر كامل من العبادة، تصوم نهاره وتقوم ليله،وطلبت منه أن يكون الجوارى خدما للأميرة صفية وهى ابنة ملك الروم الجارية في قصر عمر النعمان، وتم لذات الدواهى ما أرادت،من إرسال "عميلاتها" المدربات، إلى حجرة الملك النعمان، سعيا لأخذ ثأر حفيدتها الأميرة ابريزة، وتتم الصورة عندما تقدم العجوز للملك كأس البركة التى عليه أن يشربها فى خلوته، وتنسل هى وجواريها المدربات ومعهن صفية ابنة ملك الروم، وتكتشف جثة الملك، مسمومة متحللة بعد أيام، وبجانبها الكأس وقد كتب فى قعرها، "ما قتله أحد إلا ذات الدواهى" وقد أخذت زوجة الملك ومضت

بها إلى والدها ملك القسطنطينية،ولابد نغزوكم ونقتلكم،ونأخذ منكم الديار، ولا يبقى منكم ديَّار، ولا من ينفخ النار إلا من يعيد الصليب والزنار".

لقد استطاع راوى ألف ليلة وليلة في هذا القسم من حكاية الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان، أن يجسد صورة الفرنجة، من زاوية "الصراع الناعم" أو الحرب الخفية،ويبين الدور الرئيسي الذى تقوم به المرأة الإفرنجية، في سبيل تحقيق أهداف قومها، لكن الراوى، لم يهمل في مشاهد مطولة من الحكاية، الزاوية الأخرى من زوايا الصراع، وهى زاوية "الصراع الخشن" أو مواجهة الجيوش، وهو صراع يعتمد بالدرجة الأولى على الرجال، وأن كانت تسانده بقوة،حيل النساء، والرواى، في هذا الإطار، يتخيل حربا شاملة بين قوة المسلمين، وقوى الفرنجة، على أثر مصرع الملك عمر النعمان على يد "ذات الدواهى" وعودة زوجته صفية إلى أبيها أفريدون ملك الروم، ويحشد الراوى جيوش المسلمين، مكونة من جيوش الشام بعدأن انضم إليها العربان، وعسكر العراق، وعسكر الديلم بقيادة رستم، وعسكر الترك بقيادة بهرمان، ويصف تحرك الجيوش وأصداءه لدي الأعداء،وكيف أن "جيوش النصاري تكاملت فانضمت جيوش الروم ثم اقبلت الإفرنج من سائر

أطرافها كالفرنسيس والنيسا ودوبره وجورنه وبندق وجنوير وسائر عساكر بنى الأصفر".

ويتطرق الراوى إلى التفاصيل الدقيقة لخطة المعارك، فيتطرق إلى خطة الكمين البحرى، الذى أشارت به "ذات الدواهى" وأوصت "بإرسال خمسين ألفا من الرجال، ينزلون في المراكب، ويتوجهون في البحر، إلى أن يصلوا إلى جبل الدخان فيقيمون هناك ولا يرحلون من ذلك المكان حتى تأتيكم أعلام الإسلام، فدونكم وإياهم، ثم تخرج العساكر من البحر، ويكونون خلفهم، ونحن نقابلهم من البر فلا ينجو منهم أحد.

وتابع الراوى تخيل وقائع المعركة الكبرى التى يصل عدد الفرنجة فيها إلى ألف ألف وستمائة ألف مقاتل، يقابلهم مائتان وأربعون ألفا، في صفوف المسلمين، ومع ذلك فإن القتلى في صفوف الفرنجة تصل إلى خمسة وأربعين ألفا، فى مقابل ثلاثة آلاف وخمسمائة في المسلمين، ولا ينسى الراوى الإشارة إلى الشعارات والشعائر التى يمارسها كل من الفريقين في سبيل رفع الروح المعنوية لجنوده، وإن كان يسخر من مكونات "البخور المقدس" الذى يصفه القساوسة والبطارقة لجنود الفرنجة، ويزعم أنه ليس إلا بعضا من فضلاتهم!

ومع أن الراوى يجعل وقائع المعركة تنتهى لصالح المسلمين، بعد أن أفشلوا خطة الكمين البحرى بخطة مضادة، تجعل العدو هو الذى يقع في الحصار، وبعد أن زاد من خسائر الفرنجة وغنائم المسلمين، إلا أنه يجعل الفرنجة يلجأون مرة أخرى إلى "ذات الدواهى" لكى تمدهم بحيل جديدة توقع الضرر فى صفوف المسلمين، وينتهز الراوى الفرصة ليذكر بالتكوين الثقافي لعجوز الفرنجة فهي قد "قرأت كتب الإسلام.

وسافرت إلى بيت الله الحرام، كل ذلك لتطلع على الأديان وتعرف آيات القرآن، ومكثت في بيت المقدس سنتين لتحوز مكر الثَّقَلَيْن ، فهى آفة من الآفات، وبلية من البليات، فاسدة الاعتقاد، ليست لدين تنقاد.

أما الحيلة التى دبرتها ذات الدواهى مرة أخرى، فتمثلت في لتكوينها لفريق من صفوة الجواسيس المهرة من أبناء الفرنجة الذين يحسنون العربية، وألبستهم زى تجار المسلمين وأخذت مائة بغل حملتها ببضائع مما يصدر من بلاد الفرنجة وأعطتهم صكوكا موقعة من الملك أفريدون تقول" إن هؤلاء التجار من أرض الشام، وكانوا فى ديارنا، فلا ينبغى أن يتعرض لهم بسوء حتى يصلوا إلى بلادهم ومحل أمنهم، لأن التجار بهم عمار البلاد، وليسوا من أهل الحرب والفساد.

وكانت هذه هى الخطوة الأولى في خطتها. التى تُفضى إلى تمرير هؤلاء الجواسيس لتنفيذ ما يطلب منهم في بلاد المسلمين، أما الخطوة الثانية والأهم، فكانت تتطلب أن يحملها هؤلاء التجار(المفترض أنهم من أهل الشام) معهم بعد أن يغيروا هيئتها حتى تتحول إلى صورة شيخ عابد زاهد، وطلبت منهم أن يوثقوها ويضربوها، حتى يظهر أثر التعذيب على جسدها، وأن يخفوها فى صندوق من صناديق تجارتهم، على أنها شيخ زاهد من المسلمين، كان الفرنجة قد اختطفوه، وسجنوه فى دير لهم، ونجح هؤلاء التجار، فى تحريره وإخفائه فى صناديقهم. معتمدة على أن قلوب القادة سوف ترق لهذا الزاهد العابد الذى تم تحريره، وسيكون هذا وسيلة لتقريبه منهم للتبرك به، وتكون هذه هى الفرصة التى تسعى لها ذات الدواهى، لكى تكون قريبة من مقر صناعة القرار ومؤثرة فيه، وتورد الحكاية في هذا الإطار كثيرًا من المواقف الدقيقة التى يستعين فيها القادة ببركة الزاهد، الذى يسعى بدوره لكشف أسرارهم وموافاة ملوك الفرنجة بها، وإدارة شئون الصراع من خلال هذه المعلومات الدقيقة.

وتصل العجوز فى نهاية المطاف بعد جولات كثيرة من التخفى والكر والفر إلى الفرصة التي تتحينها، عندما تسهر على حراسة الأمير شركان، فى

خيمته، بعد أن جرح في أحد المعارك، واقتنع ببقاء الزاهد إلى جواره تبركا بـه، فتستل في وسط الليل خنجـرا مسـموما وتقتلـه بـه، وتهـرب، بعـد أن تـترك رسالة، تقول فيها "مـن عنـد شـواهي، ذات الـدواهى إلى حضرة المسـلمين، أعلموا أنى دخلت بلادكم، وغششت بلؤمى كرامكم، وقتلت سابقًا ملككم عمر الـنعمان فى وسـط قصره، وآخـر مـن قتلتـه بمكـرى ودهـائى وغـدرى شركان، ولو ساعدنى الزمان، وطاوعنى الشيطان، كنـت قتلـت السـلطان.. وأنا الذى أتيت إليكم فى زى الزاهد، وانطلت عليكم منى الحيل والمكايد فإن شئتم سلامتكم بعد ذلك فارحلوا، وإن شئتم هلاك أنفسكم، فعن الإقامة لا تعدلوا، فلو أقمتم سنين وأعواما، لا تبلغون منا مراما".

إن صـورة ابريـزة وصـورة ذات الـدواهى تحتاجـان إلى تأمـل كبـير فى بواعث صورة المرأة الفرنجية على هذا النحـو النشـيط في تـاريخ الصراع مـع المسلمين، وغياب صورة المرأة المسلمة في المقابل، وربما امتد التأمل إلى صـورة المرأة في الصراع الذى استمر لدى "الفرنجة" فى الـعصر الـحديث، وإن اتخـذ أشكالا قد تبدو مختلفة، لكنها لا تبتعد كثيرًا عن مقاصد الراوى في ألف ليلـة وليلة.

إن الراوى الذى صور هذه المعارك الطاحنة التـى سـالت فيهـا الـدماء أنهارا بين المسلمين والفرنجة، أراد في نهاية المطاف أن "يلم الشـمل" ويغلـب روح السلام وأن يذكّر بدماء النسب المتداخلة بين ملوك المسلمين والفرنجـة،

وإذا كانت علاقة الأنساب هذه واضحة من خلال أحداث الحكاية بين أبناء الملك عمر النعمان (ضوء المكان ونزهة الزمان) وأخواهما في بلاد الفرنجة التى كان منها أمهما صفية بنت أفريدون، فإن جوانب أخرى ما زالت خفية من هذه العلاقات، نتيجة مغامرات الملك عمر النعمان الذى كان كما يقول الراوى مختبرا بحب الجوارى، والراوى يذكر بقصة اعتدائه على الأميرة ابريزة، التى هربت إلى بلاد أهلها، وقتلها العبد لحظة المخاض، لقد ولدت ابريزة قبل أن تلفظ أنفاسها طفلا سماه أخواله من الفرنجة "رومزان" وقدر له أن ينمو بعيدًا عن معرفة تفاصيل حكايته، وأن يصبح يوما ما، ملكا لبلاد الفرنجة، وهو ابن ملك المسلمين عمر النعمان، وأن يتعرف على هذه الحقيقة في اللحظة التى يأسر فيها أبناء أخيه وأخته، ضوء المكان ونزهة الزمان ويكون على وشك الإطاحة برؤوسهم، وتتغلب في النهاية قرابة الدم، عند ما يظهر راوى ألف ليلة، أن ملك الفرنجة من أصول عربية، كما أظهر الراوى الفرنجى منن قبل، أن صلاح الدين من أصول إفرنجية وأن خاله هو دون بونتيو في فرنسا، ويسود فى النهاية السلام، وينعم الوئام بعد أن يتفق الجميع على قتل العجوز شواهى الملقبة بذات الدواهى.

* * *



ثانيا: صورة الفرنجة في حكايات المواجهة الفرديّة ذات الطابع العاطفيّ

إذا كانت المرأة قد احتلت مكانًا بارزًا، في رسم صورة الفرنجة، عند المواجهات الجماعية، ذات الطابع الحربي، على لسان الراوي في حكايات ألف ليلة وليلة، فإن من الطبيعيّ أن تحتل مكان الصدارة في حكايات المواجهة الفرديّة ذات الطابع العاطفيّ، والتي تقوم أساسًا، على حكاية حبٍّ بين فتى مسلم وفتاة إفرنجية، تهيئ لهما ظروف العلاقات المتشابكة بين المسلمين والفرنجة فرص اللقاء، في الوقت الذي تجعل فيه مثل هذا اللقاء، محوطًا بالمراقبة والتخوّف والتهديد بالفراق، وتفرض عليه ظروف الصراع العامة التي تحكم المواجهة بين المسلمين والفرنجة.

وكانت المدن الساحليّة هي المكان المفضل لإدارة هذه المواجهات، حيث يوجد البحر المالح الفاصل بين الطرفين، مما يسهّل للراوي، فرصة إدارة كثير من فصول الصراع حوله سواء في مجال القرصنة، وهي صورة شائعة في المواجهة بين الطرفين، أو في مجال الكر والفرّ لأحد العاشقين، وملاحقة الآخر له، في جولات تبدو في بعض الأحيان مكوكية، يحاول

من خلالها الراوي، إشباع الظمأ الذي يتولّد لدى السامع طلبًا لمزيد من المغامرة .

وتبدو حكاية " علي نور الدين مع مريم الزناريّة " وهي الحكاية الخامسة عشرة بعد الثمانمائة من حكايات ألف ليلة وليلة، تبدو حكاية نموذجية في رسم صورة المرأة الإفرنجية في لحظات المواجهة الفرديّة ذات الطابع العاطفيّ .

وتبدأ الحكاية بالإشارة إلى أنه كان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان رجل تاجر بالديار المصرية يُسمّى تاج الدين، وكان من أكابر التجار، مولعًا بالسفر إلى جميع الأقطار، ويحب السير في البراري والقفار، والسهول والأوعار، وجزائر البحار في طلب الدرهم والدينار، لكن الراوي لن يقف بنا كثيرًا أمام هذا التاجر، وإنّما يركّز على ابنه علي نور الدين، الذي سيفتعل خلافًا مع أبيه في صباه المبكر، لكي يجعله يرحل من القاهرة إلى الإسكندرية، مزودًا بنفقة قليلة دبرتها أمه له لا تزيد على ألف دينار، ولكي يلتقي مصادفة هناك، بأحد معارف أبيه من العطارين المشهورين فيقدّم له المسكن والرعاية الأولى؛ حتى يختطّ طريقه في المدينة التي يلتقي فيها كثير من العرب والفرنجة .

وتسوقه المصادفة في أيامه الأولى لأن يكون قريبًا من جلسة مزاد، تباع فيها جارية إفرنجية – وكان ذلك شائعًا في مدن سواحل البحر المتوسط نتيجة للقرصنة والصراع المستمر بين الطرفين – ويرتفع المتزايدون بسعرها، لكن سيدها كان قد ترك لها حرية اختيار من يشتريها، وهي ترفض كل الذين تقدموا لها، إلى أن تقع عينها على "نور الدين" فيقع هواه في قلبها وتود أن يشتريها، وتطلب منه أن يزيد قليلاً على الثمن الذي وصل إليه المتزايدون، ويتطلب منه ذلك أن يدفع كل وديعته المدخرة عند التاجر صديق أبيه وهي ألف دينار.

وتبدأ مواجهة الحياة المشتركة بين الشاب الذي لا مال معه، وبين الفتاة الإفرنجية الجميلة التي نعرف من خلال الحوار، أنَّها ابنه أحد ملوك الفرنجة، وقد أسرتها مراكب المسلمين هي وصاحباتها، أثناء توجههن لزيارة دير مقدّس في إحدى جزائر البحر، وتمَّ حملهن إلى مدينة القيروان، حتى تمَّ بيعهن، وكانت من نصيب رجل عجوز طيب، أحسن معاملتها، وعندما رغب في بيعها طلبت منه أن يكون لها حق الخيار فيمن يشتريها، وأتى بها إلى الإسكندرية حيث تمَّ بيعها إلى علي نور الدين.

لكن خطوات مواجهة الحياة وأعبائها، كشفت عن جانب من الصورة

التي يود الراوي أن يرسمها للفتاة الإفرنجية، وهي صورة قائمة على توافر حسن التخطيط والتدبير، ومعرفة الوسائل العملية لمواجهة الحياة، إلى جانب وسائل الراحة التي تنجح في تهيئتها للزوج، وتبدأ ترتيبات هذه المواجهة منذ الساعات الأولى، حيث تكتشف أن مال زوجها قد نفد كله في شرائها، ولم يبق معه شيء يواجهان به الحياة، فتطلب منه أن يقترض من صديق والده التاجر، خمسين درهمًا، وأن يذهب إلى السوق ليشتري بعشرين درهمًا منها خيوطًا من الحرير، وبالباقي طعامًا للبيت، وبدأت – بعد أن أعدت لزوجها طعامه وشرابه – تنسج من خيوط الحرير " زنارًا " رفيع المستوى، وقد انتهت منه في ليلتها الأولى، وطلبت من زوجها أن يذهب إلى السوق الافرنجية في الإسكندرية، وأن لا يبيع هذا الزنار بأقل من عشرين دينارًا، وفوجئ الزوج بشدة الإقبال على المنسوجات الحريرية الرفيعة التي تعدها زوجته، وبمضاعفة دخلهما كل يوم عشرات المرات إضافة إلى ما يجده في البيت من متع الحياة الزوجية، وطيب المعاشرة وأيقن أن ما يدرُّه عمل فتاته الإفرنجية على بيتهما من الربح، أكثر مما تدرُّه التجارة التي عهدها غزيرة الربح في بيت أبيه، ولقد قال لها ذات يوم " علميني حتى أعمل معك، فإني طول عمري ما رأيت صنعة أحسن من هذه الصنعة، ولا أكثر مكسبًا منها، وإنها والله أحسن من التجارة ألف مرة " .

ولنلاحظ أن الراوي يضع على لسان الفتى العربيّ الإعجاب بعالم المنسوجات الصناعية الدقيقة وهي سمة من سمات عالم الفرنجة ومهاراتهم، وأنه يضيف إلى ذلك نسبة المهارة في هذه الصناعة إلى فتاة إفرنجية في مقابل الشائع لدى العرب من محبة التجارة، التي تعتمد على ضروب من الحظّ وإحكام الحركة، وانتهاز الفرصة، ومساعدة الأقدار أكثر من اعتمادها على المهارات الدقيقة والإتقان المحكم لجزئية صغيرة، يتمُّ انتقاؤها وسط تخطيط عامٍ لجزيئات صغيرة متكاملة، كما هو الحال في عالم الصناعات، ويركز الراوي على أنَّ الذي يقوم بهذه المهارة، هو فتاة جميلة، لا تحمل معها أينما رحلت إلا خبرتها التي لا يمكن أن تضيع منها، أو تغرق في البحر، وإلا أدواتها التي لا تزيد على إبرتين تضعهما في جراب وتخرجهما عندما تجد مادة خيوط الحرير، وما أكثر وجودها في مدينة كالإسكندرية، وهي من خلال هذه الخبرة الكامنة، تستطيع أن تدير الحياة في بيت، وتضمن له مقومات العيش والسعادة .

وينتقل بنا الراوي إلى مرحلة أخرى، عندما أرادت الفتاة الإفرنجية بعد سنة كاملة، تنسج في كل ليلة منها زنارًا، مما اشتهرت بصناعته حتى عرفت بنسبتها إليه فأصبح يطلق عليها "مريم الزنارية" أرادت بعد مضي عام، أن

تنسج لحبيبها شالاً حريريًا خاصًا مميزًا، لم يُتَح من قبل لأحد من أبناء الإسكندرية " وبعد السنة قالت له الجارية: يا سيدي نور الدين، إذا بعت الزنار في غد فخذ لي من حقه حريرًا ملونًا ستة ألوان، فإنه قد خطر ببالي أن أصنع لك منديلاً، تجعله على كتفك، ما خرجت بمثله أولاد التجار، ولا أولاد الملوك، فعند ذلك خرج نور الدين إلى السوق، وباع الزنار، واشترى الحرير الملوَّن وجاء به إليها فقعدت مريم الزناريّة تصنع في المنديل جمعة كاملة .. وناولته لنور الدين، فجعله على كتفه، وصار به يمشي به في السوق، فصار التجار والناس وأكابر البلد يقفون عنده صفوفًا؛ ليتفرجوا على حسنه وعلى ذلك المنديل، وحسن صنعته "

هل أراد الراوي أن يمهّدَ للكارثة المقبلة من خلال تسهيل التعرف على الفتاة الإفرنجية، بين آلاف الشوارع والحواري والأزقة في مدينة مزدحمة بالعرب والفرنجة كالإسكندرية خاصة أننا نعلم أن الفتاة ابنة ملك الفرنج، وأن جواسيس أبيها تبحث عنها عيونهم، وتسعى وراءها أقدامهم في كل مكان، وأن الإشارة المميِّزة لها، هي البراعة في نسج الحرير، وأنها لم تنسج هذه المرة قطعة قابلة للتداول والبيع أشبهتها نحو ثلاثمائة وستين قطعة زنار، نسجتها على مدار العام، وإنما تنسج هذه المرة قطعة فريدة، ليست قابلة للبيع

ولا التكرار، وإنما هي منديل متفرد يعلم الناس أن من يلبسه هو زوج مريم الزنارية، ويسهل التعرف عليها من خلال شارته المتحركة في الشوارع .

لقد مهد الراوي الطريق بذلك لتحول مجرى الأحداث، من خلال ظهور جواسيس ملك الفرنجة في الإسكندرية، ومع أن هؤلاء الجواسيس يعتمدون عادة على حدة إبصار العينين المدربتين في التقاط الأهداف، وسرعة حركة القدمين القويتين التي تساعد على سرعة السعي نحو الهدف المكتشف، أو سرعة الفرار به، فإن الراوي يجعل شيخ الجواسيس الذي جاء للبحث عن مريم والعودة بها " رجلاً إفرنجيًّا أعور العين اليمنى، وأعرج الرجل الشمال "، وقد علمت مريم بوجوده، وحذرت نور الدين من أن يقع في شباكه.

وتسير الخطوات التالية مؤكدة مخاوف الفتاة الإفرنجية ذات النظر البعيد، وغفلة الفتى العربي رغم تحذيره من الوقوع في شباك الأعور الأعرج الإفرنجي عندما قالت له مريم: " إن هذا الرجل سيكون سبب فراقنا، وقد رأيته في تلك المدينة، وأظن أنه ما جاء إلا في طلبي. فقال لها نور الدين: يا سيدة الملاح، إن وقع بصري عليه قتلته ومثّلت به، فقالت له مريم : يا سيدي

لا تقتله ولا تكلمه ولا تبايعه ولا تشاوره ولا تعامله ولا تجالسه ولا تماشه ولا تتحدث معه بكلام قط، وادع الله أن يكفينا شرَّه ومكره ". ومع أن هذا الحوار يحمل من التفصيل ما يظهر أن الفكرة شديدة الوضوح في ذهن الفتاة الفرنجية، وأن الفتى العربيّ لا يطلب منه أيُّ شيء سوى السلبية المطلقة، وتلافي التعامل مع الجاسوس، فإنه لا يصمد في أول لقاء معه، حيث يكتشف الأعور شال مريم الزنارية على كتف نور الدين فيحاول شراءه، ويرفض الآخر، ويزيد الإفرنجي في السعر وهو يرفض، حتى يصل السعر إلى ألف دينار، وهنا يزداد ضغط تجار السوق عليه ليقبل الصفقة ويأخذ هذا الربح الوفير من الإفرنجي الملعون عدو الدين .

وتنتصر جلبة السوق الجماعيّة، التي خضع لها نور الدين على الفكرة الفرديّة المدركة للمخاطر، والتي نبهته إليها مريم، فيسلمه المنديل (رمز المحافظة على المحبوب)، ويفرح بالمال، وينتهز المندوب الإفرنجي الفرصة، ليخطو إلى هدفه بسرعة، فيدعو التجار جميعًا - وعلى رأسهم نور الدين - على سهرة عنده، ويعدهم بتقديم بنيّة خمر روميّ من معتق الخمر، وخروف سمين، وفاكهة ونقل، وشموم " ويحاول نور الدين الاعتذار، فيحلف عليه التجار بالطلاق، ويذهب بقدميه إلى بيت من يعرف أنه جاء ليخطف زوجته،

وهو يقبل دعوته على عشاء وكأس خمر، ويوصي الأعور غلمانه، بأن يزيدوا في شراب نور الدين؛ حتى سكر وغاب عن وجوده، فلما رآه الإفرنجي مستغرقًا في السكر صار يؤانسه بالكلام، ثم قال له: يا سيدي .. هل تبيعني جاريتك التي اشتريتها بحضرة هؤلاء التجار بألف دينار منذ سنة، وأنا أعطيك في ثمنها الآن خمسة آلاف دينار، فرفض، ولم يزل الإفرنجي يطعمه ويسقيه ويرغبه في المال حتى أوصل الجارية إلى عشرة آلاف دينار .. فوافق، وأشهد عليه التجار " وسجل الصفقة في الصباح أمام القاضي .

إن التوازن في بناء الشخصية، وبعد النظر، وطريقة اتخاذ القرار، والصمود أمامه، والدفاع عنه، سوف تميل كفة الميزان فيه لصالح الفتاة الإفرنجية، إذا قورنت بصاحبها الفتى العربيّ الذي يجد نفسه في نهاية المطاف، وقد ضاعت منه فتاته بطرق قانونيّة، ومن خلال دروب سعى إليها هو بنفسه، رغم تحذيره من سلوكها وتحديد المخاطر أمامه.

إن الراوي يستكمل بعد ذلك فصول الرواية على سطح البحر، وفي بلاد الفرنجة حيث تنبه الفتى بعد فوات الأوان إلى الكنز الثمين الذي فقده، فيصرّ على أن يلحق بها في بلاد الفرنجة، ويأخذه أحد ربانية السفن في ميناء الإسكندرية معه في رحلة مدتها شهران، لكن قراصنة الفرنجة يتصدون

للمركب في اليوم الحادي والخمسين للرحلة، ويأخذون من فيها أسرى لملك الفرنجة وينصحونه بذبحهم تقرّبًا إلى الله وشكرًا له على إعادة ابنته إليه، ويتكرر المشهد الذي رأيناه من قبل في معاملة الأسرى حيث يقتل كل الأسرى، ما عدا نور الدين، الذي يكون آخرهم، وتطلب راهبة في الكنيسة من الملك أن يمنحها إياه؛ لخدمة الكنيسة، وتكون تلك فرصته لكي يرى مريم، وهي تزور الكنيسة، ويتمكّن من اللقاء بها، وتدبّر له هي خطة الهرب معه بقارب بحري، وتقوم هي -كالعادة- بكل الخطوات الإيجابية، وتحذره من أن يغفل عن التعليمات؛ حتى لا تفشل الخطة، وتنجح في الوصول به على ظهر قاربها إلى ميناء الإسكندرية، بعد أن تكون قد تنكرت في زي بحار، يقود المركب بمهارة ويقتل مخالفيه من البحارة، وبعد أن تصل بالفعل إلى الإسكندرية تجيء نقطة الضعف ونقص التفكير والتدبير وإفشال الخطة منه، حيث يصرُّ هو على أن يتركها في القالب وينزل إلى الإسكندرية قبلها؛ ليحضر لها ملابس مناسبة: نقابًا، وحبرة، وخفًّا، وإزارًا فقالت له: ولكن ذلك ينبغي أن يكون بسرعة؛ لأن التراخي في الأمور يورث الندامة. فقال لها: ما عندي تراخ، وتوجه إلى بيت العطار صاحب أبيه؛ ليستعير لها من زوجته الملابس، ولكنه ما إن عاد إلى الميناء، حتى وجد رجال الأعور قد لحقوا بها وأنزلوها

معهم في سفينتهم، وعادوا بها إلى بلادهم، وتتكرر المغامرة من جديد ويلحق بها، ويقع في الأسر، ويتعرض للقتل، لكنه ينجو بالمصادفة (ولنلاحظ في كل مرة أن الفتاة الإفرنجية تنجو بالحيلة والتدبير، وأن الفتى العربيّ ينجو بالمصادفة والمقادير)، وسوف تدبر له من جديد الهرب بحصانين نادرين، طلبت منه أن ينتظرها بهما على باب المدينة، حتى تلحق به، ويهربا عليهما، ويقول الراوي: " أما ما كان من أمر نور الدين العاشق المسكين، فإنه قعد على باب المدينة ينتظرها ومقاود الحصانين في يده، فأرسل الله عزّ وجلّ عليه النوم، فنام، وسبحان من لا ينام، فسرقهما عبد كان يترصدهما، ولمحته الفتاة الإفرنجية، فلحقت به، وصرعته بسيفها، وعادت إلى نور الدين النائم فأيقظته، وهربا معًا، وعندما لحقت بهما فرقة من الفرسان، كان لابد من التصدي لهم بالقتال، وسألته السؤال التقليدي الذي يتكرر دائمًا في الموازنة بين شجاعة الفتاة الإفرنجية، والفتى العربيّ، عندما ركبت هي جوادها وتقلدت سيفها، وحملت آلة سلاحها، وقالت لنور الدين: ما حالك؟ وكيف قلبك في القتال والحرب والنزال؟ فقال لها: إن ثباتي في النزال مثل ثبات الوتد في النخال وهي إجابة أصبحت معروفة من هذه النماذج في ألف ليلة، لكن الراوي يزيد هذه المرة فيؤكد حجته بالشعر، فيورد على لسان نور الدين قوله:

يَـا مَـرْيَمُ اطْرَحِـي الـبِمَ عِتَـابِي لا تقْصِـدِي قَـتْلِي وَطُـوْلَ عَـذَابِي

مِـنْ أيْـنَ لِي أنّي أكُـوْنُ مُحَارِبَـا إنّي لأفْـزَعُ مِـنْ نعـاقِ غـرابِ

وإذَا نظـرْتُ الفَـارَ أفـزعَ خيفَـةً وأبُـولُ مـنْ خـوْفِي عـلى أثْـوَابِي

ويكمل الأبيات بأنه لا يحسن الطعان إلا في ميادين الحبِّ والغرام، وهذا تصوير تهكميٌّ يريد من خلاله الراوي أن يجسّد المفارقة بيْن تكوين الفتاة الإفرنجية الشجاعة والفتى العربي الجبان .

وتنجح مريم الزنارية في النجاة بعاشقها، والعودة به إلى بلاد المسلمين مما يدفع ملك الفرنجة، وقد عجز عن إرجاعها يكتب إلى الخليفة هارون الرشيد " يتضرع إليه فيه، ويطلب ابنته مريم، ويسأله من فضله أن يكتب إلى سائر بلاد المسلمين بتحصيلها، وإرسالها مع رسول أمين، ويعده بأن يهب له في مقابل ذلك نصف مدينة روما الكبرى؛ ليبني فيها مساجد للمسلمين ويحصلوا على خراجها " لكن الراوي يجعل هارون الرشيد بعد أن تأتي إليه مريم ونور الدين ويسمع منها هي أكثر مما يسمع منه، يقتنع بحجتها ويتكفل بحمايتها زوجة لنور الدين .

إن الراوي يصوّر الفتاة الإفرنجية على أنّها ذكية جميلة عملية مدبرة فهي شجاعة في الحرب، مخلصة في الحبّ، ماهرة في إدارة بيتها وزيادة دخلها،

لهـا وجودهـا المـؤثر في تحديـد مصـيرها ومصـير أمتهـا، وحتـى إذا لحقتهـا الشيخوخة تصير ماكرة مدبرة، تلحق مـن الضرر بأعـدائها أكثر ممـا يلحـق مئات الفرسان.

وفي المقابل تكاد تغيب صورة الفتاة العربيـة المسـلمة، في مجـال الصراع تتضاءل صورة الفتى، إذا قورنت بصورة الفتاة الإفرنجية فتكون له كثير مـن صفات السلبية والتواكـل والخضـوع للمصـادفات والإدعـاء في المقابـل أنـه يدخر قوته ومهارته إلى مجالات الغرام، التي تكتمل صورتها بالقـادة والملـوك والأغنياء، وقد تسروا بمئات الفتيات من مختلف الجهات، وضحوا في سـبيل ذلك بكثير من مصالح الفرد والجماعة .

ونكاد نتساءل في الختام هل يقع الراوي في الانبهار، وهو يرسم ملامـح صورة مجتمع عالم الفرنجة، وخاصة عالم النساء أم أنه يوجّه كثـيرًا مـن النقـد لمجتمع المسلمين في عصره من خلال التركيز على ما يراه ملامح إيجابية هنـاك تشف بالضرورة عن ملامح سلبية هنا ؟!

